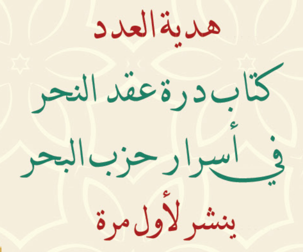


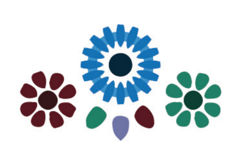
العَدَد: ٤

جمادى الآخرة ١٤٤٣ هـ - يناير ٢٠٢٢ م



مجلّة سُنِّية صوفيّة الكترونية تصدر عن

مؤسسة الصديقيّة للخدمات الثقافية والاجتماعية

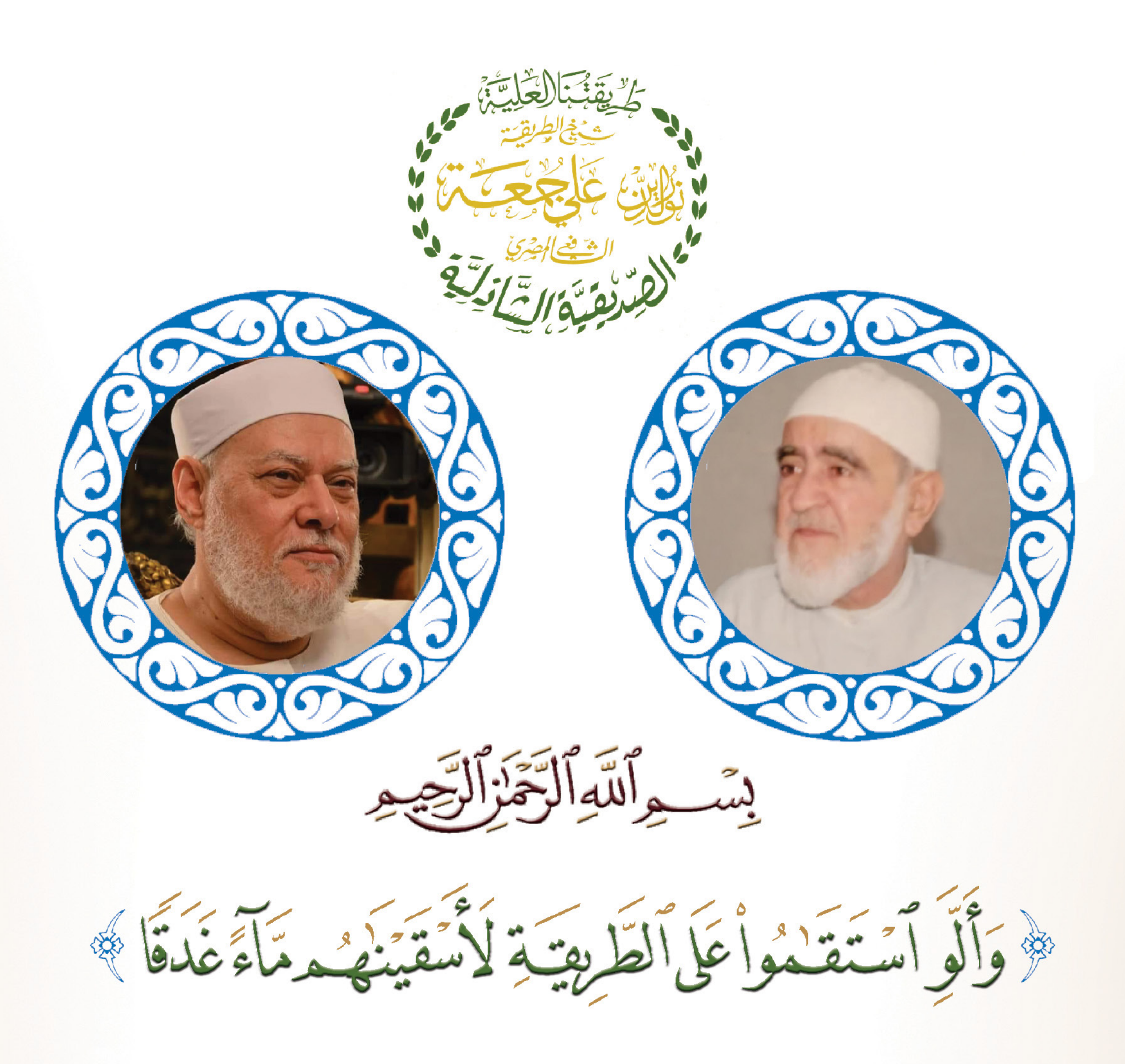


تحت اشراف

الأستاذ الدّكتور علي جُمعَة

عُضو هَيئَةِ كِبار العُلماء بالأزهَرِ الشَريف

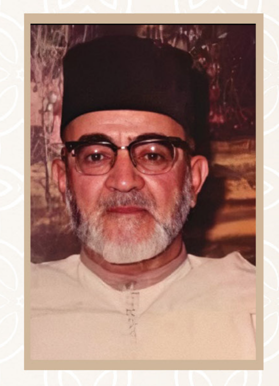




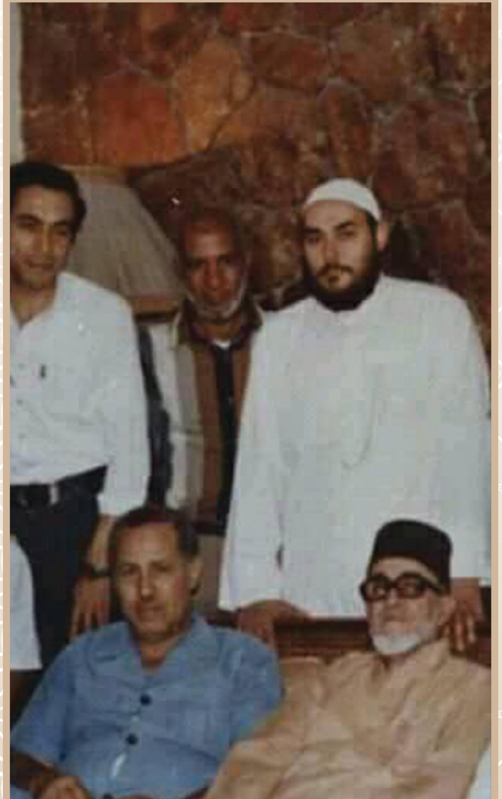
مجلّة سُنِّية صوفيّة الكترونية تصدر عن

مؤسسة الصديقيّة للخدمات الثقافية والاجتماعية

الـمشهرة برقم ٩٣٢ لسنة ٢٠٢٠

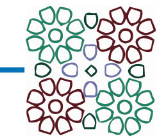





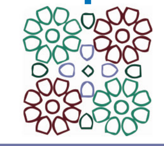




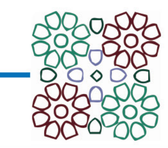

المحتويات



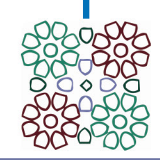
العَدَد: ٤ - جمادى الآخرة ١٤٤٣ هـ - يناير ٢٠٢٢ م



المحتويات



العَدَد: ٤ - جمادى الآخرة ١٤٤٣ هـ - يناير ٢٠٢٢ م



١

افتتاحية العدد

أ.د/ عَلى جُمُعَة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

شيخ الطريقة الصديقية الشاذلية

facebook.com/DrAliGomaa

بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد ...

نحتفل هذه الأيام بهذه الذكرى العطرة لشيخنا وأستاذنا ومعلمنا السيد عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى، ورضي الله عنه وجزاه الله بما يستحقه من خدمة السنة المشرفة. فقد كان حافظًا لأكثر من خمسين ألف حديث بأسانيدها، وكان متبحرًا في العلوم كلها، وكان أشقائه السيد عبد العزيز والسيد عبد الحي يقولون: «نعجب لهذا الرجل، فإننا لم نره يقرأ في كتاب، وكأنّ الله سبحانه وتعالى قد فتح عليه فعلَّمه مِن لدُنه علمًا»؛ كان رضي الله عنه آية من الآيات، كان يعرف عُمق المسائل، وكانت لا تغيبُ عنه مسألة لا في الفقه ولا في علم الرجال، ولا في علم الحديث، وكأنّه يقرأ من كتاب وما رأيناه يقرأ في كتاب، ما هذا؟ نحن رأينا رجلًا أكبر من كتبه، ورأيناه أكبر من الكُتُب.

ذات مرةٍ كان يجادله أحد النابتة؛ وكان الشيخ يذكرُ موقف الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه حيث جاء ليصلي الفجر بجوار قبر أبي حنيفة فترك القنوت، والقنوت ليس بسُنَّة عند الإمام أبي حنيفة، وهو

سنة عند الشافعي ويُسجد لتركه؛ لأنه بعضًا من أبعاض الصلاة، فها هو الإمام الشافعي ترك القنوت عامدًا ولم يسجُد. إذًا هو ليس بناسٍ، فسألوه: «لِمَ تركتَ القنوت، وأنت مجتهد ومذهبك أنّه سُنَّة يُسجد لتركه»، قال: «لأني بحضرة الإمام الأعظم»، ضرب السيد عبد الله هذا المثال لهذا الرجل كمثالٍ للأدب مع الأكابر، وضربه الشيخ مثالًا لمسألة الصلاة عند الضريح، فها هو الشافعي يصلي عند قبر الإمام، وهم يحرِّمون الصلاة في المساجد التي بها أضرحة أولياء الله الصالحين. فقال له هذا النابتة: «ولكن هذه الرواية فيها من لا يُعرف» -يعني في الإسناد-، فقال له السيد عبد الله: «ومن هو؟»، فقال له الرجل: «فُلان»، فقال الشيخ: «لكنَّه معروف»، قال النابتة: «لكني فتشت الكتب ولا أعرفه!»، قال الشيخ عبد الله: «هو معروف لديَّ»، قال النابتة: «هذا كلام ما يخيل علينا!» -يستهزئ بالسيد عبد الله-، قال الشيخ: «هذا الراوي الذي لا تعرفه هو ابن إسحاق ابن راهويه»، وإسحاق بن راهويه لا يُوجد في الكتب، من أين أتى بهذا وكيف؟، فراجع الرجل الاسم، فوجده صحيحًا، وأنّه ابن إسحاق بن راهويه.

هؤلاء الناس لا يعلمون شيئًا ويهرفون بما لا يعرفون ويتصدرون قبل أن يتعلموا، وإحياؤنا لمثل هذه الذكرى العطرة التي نتذكر فيها أولئك الأعلام كسيدي عبد الله بن الصديق الغماري تُرَوِّح القلوب وتفرِّحها وتخرجنا من هذا النطاق النَّكِد الذي أدخلونا فيه من غير وعي ولا علم، فضيّعوا أكثر مما حافظوا، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ولد الشيخ عبد الله بن الصديق الغُماري في سنة ١٩١٠ ميلاديّة الموافقة نحو ١٣٢٨ هجريّة ومات في ١٩٩٢ ميلاديّة، وذلك عن اثنين وثمانين سنة ميلاديَّة، ومات أبوه السيد محمد بن الصديق الكبير سنة ١٣٥١ هجريَّة، وللشيخ حينئذ حوالي ٢٤ عامًا، وأخوه السيد أحمد من مواليد ١٩٠٠ ميلاديّة، والسيد أحمد كان أشد منه حفظًا وعاش إلى ١٩٦٠ ميلاديَّة، فالشيخ رحمه الله تعالى تأخَّر حتى نلتقي به وحتى نحكي لكم عن بعض فضائله.

نتذكر في هذه الأيام هذا العلمُ الفَياض، وهذه التقوى التي شهد له بها الآخرون، وليس فقط الأتباع والمحبّون، من كثرة الذكر، من الخلوة مع ربه، من تمام إخراج السوى من القلب. **والشيخ عبد الله بن الصديق من الأكابر**، فخاله جعفر الكتّاني، وشيخ شيخنا وأبيه محمد بن الصديق، كان السيد محمد بن الصديق يجلس في مرة يشرح حديث سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، فتكلم عن الحديث وقال ليست هذه السبعة فقط؛ بل ورد في السُنَّة صفات أخرى تُظِلُّ تحت ظل العرش، وظل يسردها في مجالس

عِدَّة حتى وصلت إلى تسعين صفة، ما هذا؟ ... هذه نفحات ربّانيّة ومنح صمدانيَّة.

ووجدنا هذه التسعين حاول السيوطي أن يجمعها فلم يرق بها إلا إلى نحو ثلاثين صِفَة في موجبات ظل العرش، لكن وجدنا الشيخ الزُرقاني في شرح الموطأ وصل بها إلى سبعين، **إذًا العلم رحمٌ بين أهله وهو توفيق وفتح**، فاللهم اجعلنا منهم ومعهم.

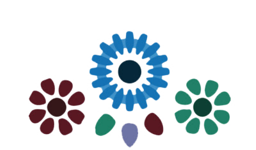
السيد عبد الله رحمه الله تعالى دخلتُ معه حارة الصناديقية حيث بيع الكُتُب بجوار الأزهر الشريف، فواجهنا الحاج حسين إمبابي رحم الله الجميع، وهو رجل كُتبي ناشر فقال له: «يا سيد عبد الله أليس عندك كتاب جديد نطبعه لك؟»، وكان يقف هناك أحد أساتذة الأزهر، فقال: «يا حاج حسين أنا أحايلك منذ سنة أو سنتان حتى تطبع لي كتابي، وأنا أستاذ في الأزهر، وأنت لا تريد طباعته، ثم لما رأيت هذا الرجل -وهو لا يعرف السيد عبد الله- تطلب منه كتابًا تطبعه له؟، عجيب أمرك يا حاج حسين!!»، فنظر إليه الحاج حسين رحمة الله عليه وقال: «أتعرف من هذا؟...هذا ابن محمد بن الصديق، هذا خاله جعفر الكتّاني، لو جلسا وهو حاضر صغير بينهما فقط يتكلمان لتخرَّج من الأزهر وصار عالمًا كبيرًا».

وكان الشيخ محمود شلتوت -والذي أصبح شيخًا للأزهر- رحمه الله تعالى يحب أن يدافع عن صورة الإسلام في العالم، فأنكر نزول عيسى آخر الزمان، فردّ عليه الشيخ عبد الله الغماري بكتابه «البُرهان في نزول عيسى آخر الزمان»، وأتى فيه بالأدلة القرآنية التي تثبت تواتر نزوله آخر الزمان عليه السلام، وأن هذه عقيدة أهل السنة والجماعة باتفاق، فلمّا قرأ الشيخ شلتوت الكتاب، قال: «أريد أن ألتقي هذا المؤَلِّف»، وظنَّه رجلًا كبيرًا في السنّ، فلمّا زاره السيد عبد الله بن الصديق الغماري، وكان عمره حينئذ لم يتعدَّ الثلاثين، فقال له الشيخ شلتوت: «أين الشيخ عبد الله الغماري؟»، فقال له: «أنا عبد الله الغماري»، قال: «أنت من كتب البرهان في نزول عيسى آخر الزمان؟»، قال الشيخ عبد الله: «نعم، سيدي»، قال الشيخ شلتوت: «يا بني من كتب البُرهان هذا لا يمكن أن يقل عمره عن ستين سنة!» وتعجَّب من سعة علمه وتمكنه، ومن حينها صارت بينه وبين الشيخ شلتوت صداقة ومحبة، وعامله معاملة الابن، ولم يخاصمه للاختلاف العلمي، وهذه هي أخلاق الأكابر. وسأله عن دراسته في الأزهر فأخبره الشيخ عبد الله أنّه أخذ عالميَّة الغرباء، فقال له الشيخ شلتوت لا بُدّ يا شيخ عبد الله أن تأخذ العالميّة الكبرى، فقال له الشيخ عبد الله: «أفعل إن شاء الله».

وكان غير العرب عادة يأخذون عالميَّة

وكان غير العرب عادة يأخذون عالميَّة الغرباء، وكان الشيخ عبد الله يحفظ القرآن وله مقرأة في زاوية النقشبندية التي في شارع بورسعيد، وكان يقرأ بالقراءات العشر وكان حُجَّة في الرسم القرآني، فالشيخ رحمه الله تقدَّم إلى العالميّة الأزهرية الكبيرة وعودلت بعد ذلك بشهادة الدكتوراة على ما فيها من صعوبة وما تتطلبه من تمكُّن في العلوم المختلفة. واختبر الشيخ عبد الله اثنا عشر عَالما من العلماء كان منهم الشيخ عبد المتعال الصعيدي، والشيخ زغلول الإبياري وغيرهم؛ سألوه في المنطق، وفي البلاغة، وفي اللغة، والفقه وهكذا، إلى أن وصلوا إلى علم الحديث، فقالوا نسأله فيه، فقال لهم الشيخ عبد المتعال الصعيدي: «تسألون من؟ هذا الشيخ عبد الله الغماري وهو من هو في علم الحديث!»، قال الشيخ زغلول: «لا بُدّ من سؤاله!»، فسألوه وأعطوه العالِميَّة من الدرجة الأولى وهي التي تُعطى للمتمكن من كل العلوم. ولما التقى الشيخ عبد الله بن الصديق الشيخ شلتوت رحم الله الجميع بعدها قال له الشيخ شلتوت: «يا شيخ عبد الله لقد تشرَّفت العالميّة الأزهرية بحصولك عليها».

لو جلسنا هكذا نحكي لأخذنا وقتًا طويلًا، فالسيد عبد الله بن الصديق كان آية من آيات الله، نسأل الله تعالى له الرحمة، وأن يلحقنا به على الإيمان وكمال الإسلام، وأن ينور قلوبنا وأن ينفعنا بعلومه في الدارين آمين.





الحمد الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام والبركة والرحمة على إمام المرسلين، وأول النبيين وسيد ولد آدم أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وتابعيه إلى يوم الدين.

أما بعد: فالحديث عن شيخي ومرشدي ومحيي قلبي ومنور طريقي إلى الله على نهج حبيبي، ومولاي رسول الله ﷺ سيدي الحجة الولي بن الولي من سلالة الأولياء والعلماء والصالحين عبدالله بن السيد محمد الصديق الحسني، من باب تذكر نعمة الله علي حيث قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحى: ١١]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [سورة النحل: ٥٣].

مما من الله به علي منذ نعومة أظفاري تعلقي بسيدنا محمد ﷺ واعتباري أنَّ الدينَ والإسلامَ والإيمان والإحسان هو: سيدنا محمد ﷺ، فلمَّا دخلتُ الجامعة وتحديدًا كلية طب «القصر العيني» في أوائل السبعينات من القرن الماضي، فوجئتُ بأن كثيرًا من الطلبة المتدينين في الجامعة ممن يصلون بمسجد الكلية يُثيرون قضايا لم تخطر على بالي من قبل؛ مثل: التوسل وأنه شرك، وسؤال: أين الله؟ وأنه على حدِ قَولهم: «في السماء»، ويحرّمونَ الصلاة في المساجد التي فيها أضرحة الأولياء، ويُكفرونَ عُمومَ المسلمين، ويعتقدون أنَّ المجتمعَ الَّذي نعيشُ فيه جاهليتُه أشدّ من الجاهلية الأولى، ويكثرون في كلامهم من ذكر أسماء محددة بألقاب

الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وابن باز وابن عثيمين، وحسن البنا وسيد قطب، وأبو الأعلى المودودي، وقليلًا ما يذكرون النبي ﷺ ، أو حتى يتحدثونَ عن فضائلِه وشمائلِه ومعجزاتِه، ويحرمون حتى الاحتفال بمولده الشريف،كل ما سبقَ أصابني بصدمةٍ شديدة جعلتني في حيرةٍ مِن أمري ،ولم تك عندي في هذا الوقت إجابة عن تلك الشبهات؛ مما دفعني لحفظ القرآن الكريم إلى أن يهديني الله لما اختلف فيه من الحق، فعكفت على حفظ القرآن، وعلى مذاكرتي حتى تخرجت من الكلية في ديسمبر عام ١٩٧٨م، وقبل تخرجي بعامين تعرفت على سيدي الحافظ محمد التيجاني رحمه الله، وبدأت أقرأ عليه مع بعض زملائي موطأ الإمام مالك على مدى عامين حتى وفاته في نفس عام تخرجي، وقد أزال من قلبي الكثير من هذه الشبهات، وأجاب رضي الله عنه عن كثير من التساؤلات، ودلني على حبِ التصوف وتزكية النفس، وأحيا في قلبي التعلق بالحبيب المصطفى ﷺ ، وبعد وفاته حضرت على الشيخ محمد نجيب المطيعي الشافعي صاحب تكملة المجموع في شرح المهذب حتى عام ١٩٨٠م ـ١٤٤٠هـ، ثم سافر إلى السودان، وفي هذا العام وتحديدا في شهر رمضان رأى أحد أصدقاء الشيخ عبد الحكيم بن عبد السلام خاطر، وكنت أحفظ عليه القرآن وأسمع عليه برواية حفص عن عاصم أخبرني أنَّ صديقَه الشيخ علاء دعبس، وهو بصير (أي فاقد نعمة البصر) **رأى رؤيا مؤداها: أن سيدنا رسول ﷺ دلَّه على السيد عبد الله الصديق الغماري، وقال له في الرؤيا: «إنه ابني، وإنه من أهل الشفاعة»**؛ فبحثت عنه، وعلمت أنه يقرأ كتاب الشمائل المحمدية للترمذي بمسجد رشدان أو رشدي بالدقي بعد العصر، وكان هذا في شهر رمضان سنة ١٤٠٠هـ ، فذهبت إليه وتعرفت عليه، ووجدت القارئ عليه هو مولانا د.علي جمعة رضي الله عنه، وكان في مرحلة الماجيستير تخصص علم أصول الفقه، ومنذ أن حضرت عند سيدي عبد الله تعلقت به واشتريت كل مؤلفاته من مكتبة القاهرة بالصناديقية بالأزهر، وقرأتها عدة مرات، وأخذتُ منه الطريقة الصديقية الدرقاوية الشاذلية، ونتج عن التعلق والقراءة أن زال من قلبي كل شك أو شبهة، **وأصبحت كأني ولدتُ ولادةً جديدةً، وازدادت معرفتي بالحبيب المصطفى ﷺ فازددت به تعلقاً وتخلقًا**، وكم من مجلس كنت أحضره معه، فأجده في حديثه مع الحضور يتناول ما يرد في خاطري، مما أحب أن أسأله عنه، وكثيرًا ماشرفت بصحبته في زيارة معارفه بالقاهرة، وكان على رأسهم الشيخ أحمد مرسي النقشبندي، وشرفني الله بالإشراف على علاجه في مرضه، وأكرمني بدعائه لي كثيراً، وما زلت أعيش بمدد أنواره وعلمه ومعارفه.

وعوضنا الله بعد وفاته بالتعلق والتشرف بمعرفة وملازمة مولانا د.علي جمعة نفعنا الله ببركاته ودعواته في الدارين وبارك الله في عمره، وألحقنا جميعا بالصالحين الذين سبقونا للدار الآخرة، وأظلنا الله معهم في ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله، وجعلنا خير خلف لخير سلف بجاه ومدد حبيبه ﷺ.



شيخنا وشيخ أشياخنا السيد عبد الله بن الصديق الغماري الفقيه



د/مجدي عاشور
المستشار العلمي لفضيلة مفتي الجمهورية
facebook.com/DrMagdyAshour

إذا ما استعرضنا حياة السيد عبد الله بن الصديق رضي الله عنه نجده عاشَ حياة مليئة بالترحال والتطواف؛ طلبًا للعلم وبحثًا عن التجديد ووضع بذور التوعية والتأمل فيما هو جديد، بعيدًا عن الجمود والتقليد، وكان للبيئة التي نشأ فيها الأثر الواضح في بناء شخصيته وتكوينه العلمي، ومن المعلوم أن الشخص يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، فيكون لها الأثر في تكوينه وبنائه، حتى حكى القرآن الكريم عن ملكة سبأ مُبيِّنًا سبب إعراضها؛ قال تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

ومفهوم ذلك: إذا نشأ الإنسان في بيئة صالحة، فلا شك أنه ينشأ على الصلاح في غالب الأمر، وتلك سمة غالبة من سمات شخصية السيد عبد الله بن الصديق رضي الله عنه؛ الإمام الحجة الفقيه الأصولي المحدث؛ حيث نشأ وشبَّ في بيت علمٍ وصلاح، فوالده رحمه الله تعالى واحد من كبار محدثي المغرب، وله زاوية معروفة بـ «الزاوية الصديقية»، كانت تُلقى فيها دروس الحديث والفقه واللغة، وهو أول من تعهد ابنه بالرعاية والتربية والتعليم والتثقيف؛ فحفَّظه القرآن الكريم وعدة متون تعليمية في الفقه والحديث واللغة والبلاغة والمنطق وغير ذلك، وكان السيد عبد الله رحمه الله تعالى من علماء الأزهر الشريف؛ حيث حصل على عالمية الغرباء وعالمية الأزهر الشريف الكبرى عام ١٩٣١م، في خمسة عشر فنًّا.

- وقد رزقه الله تعالى ذهنًا ثاقبًا وعقلًا واعيًا وذاكرة قوية، فكان إذا نظر في كتابٍ حفظه بما فيه، بل كان يحيل طلابه ومريديه من حافظته في كثير من الأحيان على المسائل في الكتب بالجزء ورقم الصفحة.

- بدأ حياته بالتفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى، كعادة غيره من المغاربة، ثم انطلق

منه إلى المذاهب الأُخرى، حتى وصل رحمه الله تعالى إلى أنه كان يخرج عن المذهب المالكي في كثير من الأحكام؛ بل ومنه إلى أقوال المجتهدين من خارج المذاهب الأربعة، فكان يأخذ بمذهب الظاهرية في بعض المسائل، فيما يعرف الآن بـ (الاختيار الفقهي)، وهو ما تمارسه الآن دور وهيئات الإفتاء على مستوى العالم.

– تبحَّر السيد عبد الله رحمه الله في علم أصول الفقه؛ فشرح «جمع الجوامع بشرح المحلي» في رواق المغاربة بالجامع الأزهر المعمور، مرتين في أربع سنوات، فتتلمذ له كثير من علماء الأزهر الشريف، كما تخرج على يديه جمٌّ غفير من أهل العلم في المشرق الإسلامي وغربه.

– كما درَّس أيضًا شرح الملوي على السلم، والجوهر المكنون في البلاغة للأخضري، وشرح المكودي على ألفية ابن مالك، وتفسير النسفي، والأحكام للآمدي في أصول الفقه، والخبيصي على تهذيب السعد في المنطق، وتفسير البيضاوي، وغير ذلك من المتون العلمية المعتمدة.

– تمكن في علمي الأصول واللغة تمكنًا بالغًا، حتى وصف ذلك – كما سمعت منه – بأنه يؤهله للاجتهاد، وله شرحٌ مهم ونافع على متن الأجرومية، الذي اعتبر أوسع شرح لها، سمَّاه شقيقه الحافظ أبو الفيض أحمد بن الصديق : «تشييد المباني لتوضيح ما حوته المقدمة الآجرومية من الحقائق والمعاني» .

وقد بلغت تآليف شيخنا رحمه الله تعالى في غير ذلك نحوًا من مائة عنوان، كما حقق الكثير من النصوص التراثية، وما زالت تآليفه الفريدة تطل بأنوارها على صفحات التاريخ إلى الآن.

– كما أنَّ للشيخ رحمه الله جهودًا في التفسير وعلوم القران الكريم، وقد كُتبت عنه رسالة علمية (ماجستير) في جامعة الأزهر الشريف بعنوان: «الشيخ الامام عبد الله صديق الغماري وجهوده في التفسير وعلوم القران» عام ٢٠٠٩م .

– قام بتعريف البدعة وتقسيمها، وألف فيها كتابًا مستقلًّا أسماه «إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة»، مقتفيًا فيه سنن الأئمة الأولين؛ كالعز بن عبد السلام وغيره، ليردَّ بذلك على ما كثر في التبديع والحكم على كثير من الأفعال التي لها أصل في الدين بأنها بدعة وهي ليست بدعة، وذلك حسبما اقتضته الأدلة، في إطار القواعد الأصولية؛ مؤكدًا أنَّ الأمر بالإضافة إلى كونه محتاجًا إلى التأني والتريُّسِ، يحتاج أيضًا إلى تعلم وفقه وسعة فهم للنصوص وإدراك لتصرفات الأئمة والسلف الصالح رضوان الله عليهم مع ما يصدر من الجناب النبوي، مما حدى بالشيخ أن يعالج ذلك في مؤلَّف آخر ماتع أسماه «حسن التفهم والدرك لمسألة الترك»، ليحاول إثبات أن ترك النبي وآله وصحبه لبعض الأعمال لا يدل بالضرورة وفي كل الحالات على أن تلك الأعمال بدعة أو حرام أو مكروه شرعًا ولا يجوز تبديع الناس بحجة أنهم فعلوا ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة الكرام، وبهذا الفهم العلمي الأصولي ينبغي الاحتياط في اتهام الناس بالبدعة وإلصاق التهم بهم ووصفهم بأنهم مبتدعة ضالون وهذا يدل على عمق الشيخ العلمي في المسائل الفرعية والجزئية.

- وقد وصل السيد عبد الله رحمه الله تعالى في علم الحديث بالخصوص، إلى درجة عالية بلغت درجة المحدث، حتى اعتبر حافظ العصر، كما كان يطلق عليه بعض كبار علماء وقته؛ إذ كان يستظهر أكثر من عشرة آلاف حديث بأسانيدها، ومعرفة رجالها، وقد بلغ في علوم الحديث شأوًا كبيرًا؛ دراية وروايةً، وقد شرح «نيل الأوطار» للإمام الشوكاني، وكان ينصحنا به دومًا، وكان يذكر أنَّ لابن الملقن كتابًا في جمع الأحاديث الضعيفة التي استندت عليها المذاهب الفقهية.

وقد تكلم أيضًا في دقائق المسائل الحديثية؛ كمسألة العمل بالحديث الضعيف، ومسألة هل حديث الصحيحين يفيد اليقين؟

بالإضافة إلى فهمه وشرحه لكثير من الأحاديث التي يوهم ظاهرها اللبس أو التعارض.

- عمل السيد عبد الله رحمه الله مدرسًا للعلوم الشرعية بالجامع الأزهر بصفة تطوعية، وعينته وزارة الأوقاف المصرية مفتشًا للدروس التي تلقى في الصحيحين بمساجدها، وبعد عودته من مصر استقر بمدينة طنجة خطيبًا بالزاوية الصديقية، ومدرسًا للعلوم الشرعية بها، وأخذ عنه العدد الجم من طلبة العلم، ولم يبق قطر إسلامي إلا وله فيه تلامذة.

- التقينا معه في المدينة المنورة وفي مصر المحروسة أيضًا، وقرأنا عليه شيئا من العلوم هنا وهناك ، وقد اختص الله الفقير بأن قرأ عليه في المدينة المنورة بعضا من حاشية الملوي على شرح السُّلَّم في علم المنطق ، وهذا شيء من القاسم المشترك الذي يجمعني بسيدنا الشيخ عبد الله وسيدنا الشيخ علي جمعة ، الذي قرأت على فضيلته أيضا في المدينة المنورة شيئا من شرح منهاج الإمام النووي في الفقه الشافعي ، ولكن ما زاد مع سيدنا الشيخ علي جمعة أن القراءة كانت بالمسجد النبوي عند الساعة العربية بجوار باب سعود .

هذا وقد كانت بيني وبين سيدنا الشيخ عبد الله الصديق رضي الله عنه مراسلات علمية ، حيث كنت أسأله في مسائل علمية في علوم شتى، وهو بطنجة في المغرب العربي، وكان يبدأ رسالته في رده على الفقير بـ (الأستاذ مجدي عاشور)، وأنا ما زلت صغيرًا في مرحلة الطلب؛ ليعلمنا ويربينا على التواضع قبل العلم ومعه وبعده .

- تولى فضيلته الرد على أسئلة القراء وفتاويهم بمجلة الشرق العربي، والتي كانت تصدر بالقاهرة ابتداء من سنة ١٩٤٧م، وقد شملت الفتاوى معظم ما يحتاجه المسلم من أمور دينه وعبادته، وقد جُمعت هذه الفتاوى بعد ذلك وطبعت، باسم « الحاوي في فتاوي الشيخ عبد الله الغماري ».

- وقد امتازت فتاوي الشيخ رحمه الله تعالى بما يدل على فقهه وباعه الطويل في إدراك النصوص الشرعية وفهمها ؛ توثيقا وفهما وتنزيلا على الواقع؛ ويظهر من فقهه هذا تميزه وبراعته في أمور كثيرة؛ منها:

(١) العرض المتقن لأقوال الأئمة رحمهم الله تعالى وآراء السلف الصالح رضوان الله عليهم، كصنيع ابن قدامة في المغني ، وابن رشد في بداية المجتهد ، وزاد عن ذلك بمحاولة الموازنة بينها بما يتماشى مع متطلبات العصر وقضايا الواقع؛ كفتوى العزل (تنظيم النسل).

(٢) تصحيح المفاهيم التي غبشتها عقول المتطرفين؛ كفتوى المنع من إقامة الحدود والقصاص بين الأفراد حال غياب الحاكم بالشريعة الإسلامية؛ لما يترتب عليه من انتشار الفوضى واضطراب الأمن العام، وكذلك فتوى الصلاة في المساجد التي بها أضرحة، والتوسل بالصالحين وآل البيت الأكرمين، والتبرك بآثارهم الطيبة، وعمل تمائم الأذكار، والاجتماع على الذكر بصوت عالٍ، وحياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبره الشريف، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم جهرًا بعد الأذان، وقراءة القرآن على القبر، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ونحو ذلك؛ مما مشت عليه الأمة عبر الأعصار والأمصار قبل انتشار النابتة.

ومن ذلك قوله بأولية خلق سيدنا آدم عليه السلام جسدًا ، أما روحًا وحقيقة، فالأولية لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، مستدلًّا بحديث:«إني لنبي وآدم بين الروح والجسد» وحديث : «إني لنبي وآدم منجدل في طينته » . (انظر الحاوي في فتاوي الغماري ص ٣٣).

(٣) الاختيار الفقهي؛ كما في فتوى «تعدد الجمعة في البلد الواحد»؛ كما هو اختيار الفقهاء المتأخرين، ولا يخفى مناسبة هذه الفتوى لهذا العصر، وكذلك فتوى «لمس المرأة الأجنبية بدون شهوة لا ينقض الوضوء»، وفتوى «زخرفة المساجد»، وفتوى «الصلاة على الأولياء والصالحين»، وفتوى «تلقين الميت بعد الدفن» .

ومن ذلك أيضًا ما أورده في كتابه (الحاوي في الفتاوي ص ٥٧) في من مات وعليه صوم ، حيث قال : «وأما المسألة السادسة : فإن الحديث فيها يدل على أن الشخص إذا مات وعليه صوم فرض كرمضان أو نذر فإن وليه يصومه عنه ، وبهذا أخذ أهل الحديث وأبو ثور والأوزاعي وجعفر الصادق والليث بن سعد وغيرهم ، وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه : يصوم الولي عن الميت النذر دون رمضان ، وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي في أحد قوليه : لا يصوم الولي عن الميت لا نذرا ولا غيره ، والصحيح الأول ، ثم ذهب جمهور القائلين بصوم الولي عن الميت إلى أن الصوم ليس بواجب، بل يندب فقط ، وحكى إمام الحرمين الإجماع عليه وهو غلط ، بل ذهب الظاهرية إلى أن صوم الولي عن الميت واجب سواء أوصى به الميت أو لا ، وأيد ابن حزم ذلك ، والحديث المذكور يؤيد الوجوب أيضا» .

(٤) مراعاة الواقع ومتطلبات العصر وحاجاته: كما في فتوى «إباحة الصور الفوتوغرافية»، وفتوى «الإعلام بوفاة الميت في الجرائد»، ونحو ذلك.

إن المقام الآن لا يتحمل أكثر من هذا، وإلا لو كتبت عن سيدي الشيخ عبد الله الصديق الغماري، كفقيهٍ وأصولي يؤصل ويختار ويرجِّح، لاحتجت وقتًا ليس بالقليل، ولكان الناتج مجلدًا كبيرا، ولكن هذه نبذة من متعجل، ومع ذلك تنبئ كم كان الشيخ عالِما بل علَّامة متبحرا في علوم الشريعة وعلوم الآلة على حدٍّ سواء، قَلَّ أن يجود الزمان بمثله، رضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه في الدارين .. آمين .



شَيْخِي طَبِيبي وَأسْتَاذِي وَيَصْحَبُنِي
بالنُّصْحِ فِي الدِّينِ والدُّنْيَا لِمَنْجَاتِي
والأمرُ والنَّهي مِنْ شَيْخِي لِيَسْلُكَ بِي
فِي غَيرِ طَاعَةِ نَفْسِي فِي المِلَذَّاتِ
أمَّا عَنِ الإذْنِ فَهْوَ السرُّ إذْ يَسْرِي
شَرْطَ القَبُولِ والاسْتِعْدَادِ فِي الذَّاتِ
وَحَضْرَةُ الشَّيْخِ فِي الإجْلالِ مَا بَرَحَتْ
أمَّا الجَمَالُ فَمِنْ خَيْرِ البَرِيَّاتِ
والْوِرْدُ فِي السُّنَّةِ الغَرَّاءِ فَالْزَمْهُ
مِنَ الكِتَابِ فَفِي القُرْآنِ قُربَاتِي
وَوَارِدُ الشَّيْخِ لِلمَأذونِ يَلْزَمُهُ
شَرْطَ الحُضورِ بِدَفْعٍ للمُلمَّاتِ
وغَيْرَ شَيْخِكَ لَا تَصْحَبْ لِمَنْفَعَةٍ
فَالغَايةُ الجَمْعُ فِي وَجْهِي وَأوْقَاتِي

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد، فينبغي على كل طالبِ عِلْمٍ طَلَب الأستاذِ، وهذا مما يُعلَم بالضرورةِ، ولما كانَ العلْمُ باللهِ أسنى العلوم وأجمعُها، وأشرفُ الغاياتِ وأرفعُها، كانَ طَلَبُ الأستاذ آكد عند أهلِ هذا الطريقِ؛ ويسمونه الشيخ.

وقد نبَّه الشيخُ الأكبر محيي الدين ابن العربي -قدس سره- إلى أن منزلةَ الشيخِ مِنَ العُلماء باللهِ، كمنزلةِ الطبيبِ مِن علماء الطبيعةِ، فيعلَمُ

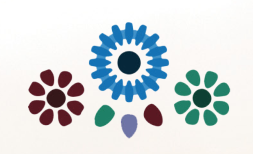
الطبيب الطبيعةَ مِن حيث تدبيرها للبدَن الإنساني، أمَّا العالِم بعلمِ الطبيعةِ، فيعرفها مُطلقًا وإن لم يكُن طبيبًا، وقد يكونُ الشيخُ مِن العُلماء بالله الراسخين، إلَّا أنَّ ما يلزمه من العلم من وجه شيخوخته هو ما يلزم النظر إليه في هذا المقام، فينبغي له أن يعرف علل النفوس وأدويتها، وما يُصلح الأمزجة وما يُفسدها، وما أثر الأزمنة والأمكنة والأغذية، ويعلم بواعث المريد ودوافعه ومصادر أفعاله، ويعلمُ الخواطرَ وأقسامها، وما مواطن التلبيس في الاعتقاد، وما مداخل الشيطان، وبما يدخل على المريد من كل جهة، ويعلم النظرة والأنفاس، ويميّز أصناف الكشفِ، ويدرك مواطن التجلي، وكذا يعلم الحُجُبَ التي تحفظ العبد من إلقاء الشيطان.

ولا نطيل بذكر ما للشيوخ من العلوم؛ إذ الجامع لها أن يكون للشيخ ما يحتاج إليه المريد في السلوك، إذ ليس المقصود هنا الكلام عن علوم الشيوخ أو مقاماتهم، بل الغرض الإشارة إلى رتبة الشيخ؛ ولذا ذكرنا ما يلزمهم مِن كونهم أطباء دين الله، يحفظ الله بهم صحةَ عقائد المريدين، كما يحفظ بهم الشرع، وهم على مراتب ولا بد.

وكما أن الواجب على طالب سلوك الطريق إلى الله طلبُ الأستاذ الشيخ المربي، فالواجبُ على من وجدَه حِفظَ حُرْمَتِهِ، والوقوف عند ما حدَّهُ له مِن الأعمالِ والأذكار، والتفنُن في إتقانِ ما يُلقي إليه مِن فنونِ الرياضات والمجاهدات، وأن يجعل ذلكَ سِرًّا فلا يظهر به، ولا يُحدِّث نفسه بامتيازٍ عن غيرِهِ ممن هو مِن أهل الطريق، فإن ارتقى فلا يرى لنفسه درجة على أي مُسلم، بل لا يرى أنه أفضل من أي أحد لشهودِهِ انتساب الخَلْقِ لخالقِهم جلَّ شأنه، وقد قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه ورضي عنَّا بمحبته: «لم يبلُغ مِن الأمرِ شيئًا مَن لم يُوقِّرْ جميع الخلائق».

وعليه بعدمِ الالتفاتِ إلى غير شيخه مِن الشيوخِ، مع توقيرهم وحفظ قلوبهم واحترام المنتسبين إليهم، ويجعل اعتقاده أن كل ما يلزمه لا يأتيه من الله إلا بواسطةِ شيخه الذي اختاره له، ولذا جعلَ أكثرُهم الاستخارة من شروط طلب الإذن في سلوك الطريق على يد الشيخ المعين.

ويعين الشيخُ المريدَ على كمال التوجه إلى الله تعالى، وللشيخ في هذا الشأن توجيهٌ بمقال وتوجُّه بحال؛ ويكون ذلك بنظر الشيخ إلى المريدِ من حيث استعداده لتحمل أنوار الواردات، أو تأهيله لحملها بالنصح والشرح والإرشاد، فإنَّهُ لا يقدر كل أحد على احتمالِ الأنوارِ لما يدخلُ على الذَّواتِ مِنْ ظُلُمات المخالفات، وحُجُب العادات.





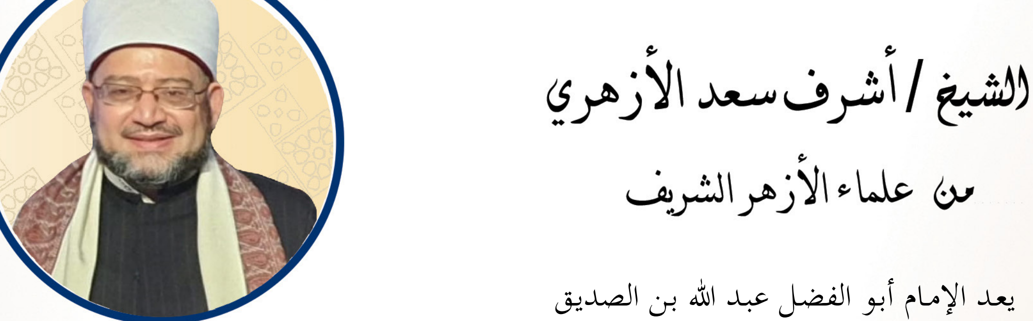
اللّهم صلِّ أَفْضَلَ صَلَاةٍ
عَلَى أَسْعَدِ مَخْلُوقَاتِك
سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ
وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلِّم
عَدَدَ مَعْلُومَاتِك وَمِدَادَ كَلِمَاتِكَ
كُلَّمَا ذَكَرَكَ الذَّاكِرُونَ
وَغَفَلَ عَن ذِكْرِهِ الغَافِلُون

ذكرها الإمام الشَّافِعِى رَضِى الله عنه فى الرسالة

٥

قبس من

منهج المجدد الإمام عبد الله بن الصديق الغماري في فهم وتفسير القرآن الكريم



الشيخ / أشرف سعد الأزهري

من علماء الأزهر الشريف

يعد الإمام أبو الفضل عبد الله بن الصديق الغماري الحسني، أحد أكابر العلماء المجتهدين المحققين في القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجريين، فهو المحدث حافظ العصر، ناصرالسنة ورافع لواء الحديث، محدث الديار المغربية، الأصولي الفقيه، النحوي، المدقق، السالك الناسك بقية السلف الصالح، وتظهر مصنفاته العالية وأبحاثه العلمية الشرعية العميقة عظيم صفاته العلمية وملكاته الذهنية والعقلية، وبصيرته النافذة، وتشهد بتبحره في العلوم، وما فتح عليه فيها من المعاني النفيسة، وشوارد الفوائد، والمباحث الدقيقة في سائر فروع العلم التي لم يسبق إليها.

ومن أهم المباحث التي أتى فيها بالمعاني الجليلة، ودقائق الخطاب، ما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه، وقواعد وأصول وضوابط تفسيره، وما يتعلق بقضية نسخ التلاوة، وكذا بيان المعاني الصحيحة الخفية لآيات من القرآن الكريم، ونفي المعاني الباطلة عن كتاب الله الكريم، فمن ذلك:

مباحثه وتعليقاته وكلامه رضي الله عنه في بيان رد بدع التفاسير القديمة والمعاصرة التي خالفت الأصول العامة والقواعد الصحيحة والضوابط اللازمة لتفسير كلام الله تعالى، ونسبت المعاني الباطلة لكتاب الله عز وجل، وذلك في كتابه القيم الماتع (بدع التفاسير) الذي لم يسبق إليه، والذي يجب استصحاب ما حوى من المعاني والضوابط والقواعد حين التعرض لتفسير

القرآن الكريم، أو القراءة في كتب التفسير.

فقد وضع الإمام الغماري خارطة شرعية عقلية جامعة، بها معالم ضابطة لتفسير كتاب الله تتلخص في:

١-كيفية التعامل مع ألفاظ الكتاب الكريم:

- ألفاظ القرآن في الأحكام والقصص وما يتعلق بحقائق الإيمان يمتنع حملها على المجاز، وتحمل على حقيقتها الشرعية كالإيمان والإسلام والصلاة والصيام والزكاة والحج، فإن لم يكن لها حقيقة شرعية حملت على الحقيقة اللغوية كالنكاح والظهار والقروء في العدة، ويمنع دخول المجاز في هذا النوع؛ لأنه ينافي الغرض من التشريع ويؤدي إلى تعطل الشريعة.

- الآيات التي تتحدث عن الأمم السابقة وأحوالها تحمل على حقيقتها ويمتنع فيها المجاز.

- ألفاظ يمتنع حملها على الحقيقة وهي آيات وألفاظ الصفات؛ نحو: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾،﴿بل يداه مبسوطتان﴾، ﴿فإنك بأعيننا﴾، فالحقيقة هنا ممتنعة ومذهب العلماء في ذلك هو تفويض المعنى، أو التأويل بمعان مجازية معروفة في لغة العرب، والحذر من مسلك المجسمة تجاه مثل هذه الآيات [(١)].

٢- شروط يجب أن تتوافر في المفسر ورعايتها والتقيد بها:

- التجرد من الآراء المذهبية وعدم حمل معاني القرآن عليها.

- توطين نفسه على تقبل ما تفيده الآية وتدل عليه.

- وعدم التمحل في تأويل الآيات وطلب وجوه الإعراب البعيدة أو حملها على المعاني التي لا تتفق مع سياقها.

- مراعاة سبب النزول، عدم مخالفة ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير آية.

- مراعاة تفسير الآيات بما هو معروف من لغة العرب وقت نزول القرآن، فيجب عليه مراعاة قواعد اللغة العربية وأساليبها المعهودة لدى العرب وقت النزول وعدم التفسير بمعاني حادثة مستجدة بعد زمن تنزل القرآن.

- تجنب تفسير القرآن باللغات الغريبة، أو تخريج إعرابه على الوجوه الشاذة أو الضعيفة بحسب القواعد النحوية؛ والذي يورث التنافر وضعف التركيب؛ لأن ذلك ينافي فصاحة القرآن والتي هي خلوص كلماته من التنافر والغرابة والتعقيد[(٢)].

٣- مراعاة الضوابط الكلية، مثل: وجوب مراعاة النسق والسياق في الآيات عند التعرض لتفسيرها، فليس كل استدلال بآية على تفسير أخرى مما يصح، ورد كل ما يتعارض مع سياق الآية، وتفسير الآيات بما يناسب مقام النبوة، وأن

(١) انظر: بدع التفاسير (ص٩-١٠) لأبي الفضل عبدالله بن محمد الصديق الغماري الحسني الإدريسي- دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء- المغرب- الطبعة الثانية- ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.

(٢) انظر: بدع التفاسير (ص١٠: ١٣).

كل معنى يتعارض مع صريح القرآن وصحيح السنة فهو باطل، ومراعاة كون الخاص الذي يراد به الخاص لا ينبغي حمله على العموم، وأن القراءات يفسر بعضها بعضا .[٣]

وقد رد الإمام الغماري من خلال هذه القواعد والضوابط على الكثير من تفاسير المعتزلة الباطلة وأمثالهم في القديم والحديث فمن ذلك:

– التحذير من تغيير معنى الآية والعدول عن ظاهرها لتتمشى مع مذهب المفسر وعقيدته؛ عندما رد على الزمخشري قوله في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في سورة الكهف، فقال–أي الزمخشري–: وفيه وجه ثالث وهو أن يكون إن شاء الله في معنى كلمة تأبيد، أي كأنه قيل: ولا تقولنه أبدًا.

فيقول الغماري رحمه الله: هذا من بدع التفاسير، لأنه صرف للآية عن ظاهرها، ولأن جعل المشيئة لتأبيد النهي مبني على مذهبه الاعتزالي في أن مشيئة الله لا تتعلق بجميع أفعال المكلفين بل ببعضها .[٤]

– الانتباه إلى أن المجاز لا يدخل فيما يحكيه القرآن عن الأمم السابقة، ومن خلاله رد على المرتضى من الإمامية عندما فسر قوله تعالى:﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٥٤]، فقال: أن معناه اجتهدوا في التوبة مما أقدمتم عليه، والندم على ما فات وإدخال المشاق الشديدة عليكم، حتى تكادوا أن تقتلوا أنفسكم.

(٣) انظر: بدع التفاسير (ص٢٠: ٣٠).

(٤) انظر: بدع التفاسير (ص ٨١).

فقال الغماري ـ رحمه الله ـ: إن هذا من بدع التفاسير؛ لأن المجاز لا يدخل فيما حكاه القرآن عن الأمم السابقة، وفصل في ذلك تفصيلًا بديعًا .[٥]

ومن المباحث التي أبدع فيها الإمام عبد الله بن الصديق الغماري فيما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه، ما يتعلق بمبحث نسخ التلاوة في القرآن الكريم؛ حيث ترجح لديه نفي وجود نسخ تلاوة آية من القرآن الكريم أو أكثر، أي نسخ لفظها ورفعه بعد أن كانت من القرآن الكريم، وقد فصل هذا الأمر في كتابه القيم (ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة)، من خلال الرد على أقوال العلماء المثبتين لنسخ التلاوة، وبنى ذلك على أدلة شرعية وعقلية ونظر وجيه معتبر، من هذه الأدلة:

– نقد الآثار التي وردت في هذا الأمر، وبيان أنها أخبار آحاد منكرة بها الكثير من العلل التي تقدح في ثبوتها وتفنيدها من الناحية الحديثية والأصولية .[٦]

– بيان أن تلك الجمل التي قيل أنها كانت من القرآن ونسخت هي جمل لا رابط يربطها بآيات القرآن، بل هي جمل مقتطعة لا يدرى أين كان محلها من المصحف الشريف .[٧]

– إشارته رحمه الله إلى قضاء العقل باستحالة نسخ التلاوة لأنه يستلزم القول بالبداء في حق الله تعالى، وهو ظهور المصلحة في حذف الآية بعد خفائها وذلك محال في حق الله تعالى .[٨]

(٥) انظر: بدع التفاسير (ص١٧).

(٦) انظر: ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (٩: ١٥) لأبي الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري – مكتبة القاهرة- القاهرة- الطبعة الرابعة ١٤٣٤هـ-٢٠١٣ م.

(٧) انظر: ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص١٥).

(٨) انظر: ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص١٣).

- تنبيه الشيخ رحمه الله أن ما جاء في الروايات أنه من القرآن الذي نسخ لا نجد فيه طلاوة القرآن ولا أسلوبه ولا جرس لفظه[9]، بل هو مخالف لأسلوب القرآن ونظمه ونسقه، فضلا عن أنها لم تثبت بالتواتر فهي شاذة، فلا تكون قرآنًا[10].

- إشارته اللطيفة إلى أن السنة النبوية وقع فيها نسخ المعنى (الحكم) دون نسخ اللفظ؛ فلم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رجع عن لفظ من ألفاظ حديثه أو بدله بغيره أو قال للصحابة عن حديث ما لا تحفظوه فقد نسخت لفظه أو رجعت عنه فلا تبلغوه عني، فلم يثبت مثل ذلك أصلًا، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز أن ينسب إلى الله تعالى رجوعه عن لفظ آية أو نسخ تلاوته[11].

- رده على ما قيل في معاني آيات من القرآن أنها تعني نسخ التلاوة؛ فقال عن معنى قوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[البقرة:١٠٦]. ﴿مَانَنْسَخْ﴾ من حكم ﴿مِنْ آيَةٍ﴾فنبدله بغيره ﴿أَوْنُنْسِهَا﴾ أو نتركها فلا نغير حكمها، وكذلك قراءة: ننسأها، معناها: نؤخرها فلا نغير حكمها، والمؤخر متروك ﴿نَأْتِ بِخَيْرِمِنْهَا﴾ للمكلف إن كان خفيفا فخيريته بسهولته، وإن كان شديدا فخيريته بكثرة ثوابه، فالنسخ والترك لحكم الآية، وأسند في الظاهر إلى الآية، لأنها أصله وهو مدلولها، وهذا نوع من الإيجاز المعروف في القرآن، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]، أي أهلها[12].

بالإضافة إلى ما سبق تمتع الإمام عبد الله بن الصديق الغماري بالغوص في بحار معاني القرآن الكريم، فوقف على كثير من المعاني والاستنباطات وحَلَّ الإشكالات، وربما كان بعضها مما لم يسبق إليه، وهذا مبثوث في معظم مؤلفاته ومن أمثلة ذلك:

- بيان الفرق بين: ﴿اسطاعوا، واستطاعوا في قوله تعالى فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، والحكمة في ذلك، يقول الشيخ رحمه الله: أن الحكمة –مما يظهر لي والله أعلم– أن الظهور على السد لا يحتاج إلا إلى محاولة بالأيدي والأرجل، أو وضع ما يرقى عليه كالسُّلم، فلذلك عبر فيه باسطاعوا، ولكن نقبه يحتاج فيه إلى معدات النقب، كالفؤوس والمعاول، فعبر فيه باستطاعوا، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، كما تقرر في علوم العربية[13].

- وفي بيان ورود الاستفهام بمعنى الأمر يقول الشيخ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠] أي أسلموا. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي انتهوا. ولهذا قال عمر رضي الله عنه عند

(٩) انظر: ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص١٣).
(١٠) انظر: ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص١٦).
(١١) انظر: ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص١٦).
(١٢) انظر: ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة(ص١٩).
(١٣) انظر: موسوعة العلامة المحدث المتفنن سيدي عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني (ج١٣- خواطر دينية ٥٧/١) مركز البحوث والدراسات بكلية الصفا الإسلامية (ماليزيا) دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة- الطبعة الثانية ١٤٣٨هـ

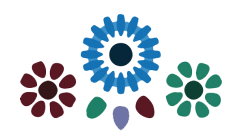
نزولها: انتهينا يا رب. وورود الظن بمعنى العلم ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يعلمون ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦]. ونحو ﴿فَظَنُّوا﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].(١٤)

- ذكر الشيخ رحمه الله دقيقة من معاني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]. فقال: سألت عنه مولانا الوالد رضي الله عنه، فقلت: هذه الآية تفيد أن القاتل مخلد في النار، فكيف يجاب عنها، لتتفق مع الأدلة على أن عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار؟

قال: الجواب في الآية نفسها، قلت: كيف ذلك؟ قال في قوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ أي أن هذا جزاؤه ولكن الله تعالى تفضل فلم يعاقبه بهذا الجزاء، وهذا كما يقول الرجل لولده إذ خالفه جزاؤك أن أضربك مائة سوط، ثم يسامحه أو يضربه عشرة أسواط .(١٥)

- التنبيه إلى الآيات الجامعة لمعاني دين الإسلام، ويذكر الإمام الغماري لها مثالًا فيقول: قال الله تعالى يخاطب موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وهذا تصريح بوجود الله وتوحيده، وفيه إشارة إلى العقائد العقلية، أي التي أثبتها العقل، وإن كان النقل أثبتها أيضا، فالاعتماد فيها على العقل ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾وهذا تصريح بالأعمال الفرعية، وخصت الصلاة منها بالذكر لأهميتها ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٣-١٥] وهذا تصريح بالعقائد النقلية، أي التي أثبتها النقل، وحكم العقل بجوازها، بل بوجوبها لإيجاب النقل الصادق لها فهذه الآية جمعت جملة الدين كما ترى .(١٦)

رحم الله الإمام الغماري، وجزاه خيرًا عما قدمه للإسلام والمسلمين... والحمد لله أولًا وآخرًا.



(١٤) انظر: موسوعة العلامة المحدث المتفنن سيدي عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني (ج١٣- خواطر دينية ٩٣/١).

(١٥) انظر: موسوعة العلامة المحدث المتفنن سيدي عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني (ج١٣- خواطر دينية ١٢٨/١).

(١٦) انظر: موسوعة العلامة المحدث المتفنن سيدي عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني (ج١٣- خواطر دينية ٢٠٣/١).

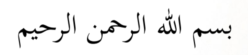
٦

تحقيق قصيدة العلامة القصبي في بناء مقام السيد البدوي رضي الله عنه عام ١٢٨٥ (هجرية)

د. محمد وسام عباس خضر

أمين الفتوى بدار الإفتاء المصرية

facebook.com/Mohammad.Wesam.Khedr



الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وملائكة الله، وبعد..

فهذه قصيدة مباركة، نظمَتْها يراعٌ شريفةٌ لإمامٍ شاعرٍ، وفاض بها قلبٌ محبٌّ لوليٍّ عارف، هو العلامة الإمام السيد محمد بن محمد إمام القصبي [ت١٣١٦هـ]، في مديح السيد أحمد البدوي رضي الله عنه، وذلك عند بناء مقامه الشريف عام ١٢٨٥ هجرية.

أما الناظم:

فهو -كما ترجمه صاحب «مرآة العصر»[(١)]- : «العلامة الشهير، الفاضل الفهامة النحرير، الكامل السيدُ محمدٌ القصبي، شيخُ الجامع الأحمدي، نجلُ المغفور له الإمامِ الدرّاكةِ السيدِ محمدٍ القصبي شيخِ الجامع الأحمدي، ابنِ المغفور له صاحبِ المكارم والولاية، المشهودِ له بالدراية، السيدِ حسن طلحة، ابنِ المرحوم السيد محمد طلحة، ابن السيد مصطفى طلحة، ابن العلامة الشريف الحسني السيد عيسى طلحة؛ المنتهي نسبُه إلى مولاي إدريس الأصغر، ومنه إلى سيدنا الحسن عليه السلام، ابن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وابن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. أقام مولاي إدريس في مدينة فاس من مدن المغرب فكثرت فيها ذريته وانتشرت في أنحاء البلاد المغربية ومنها الشريف طلحة الحسني الذي

(١) «مرآة العصر، في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر» للمؤرخ إلياس زخوره (ص: ٤٥٢)، طبع بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧م.

ارتحل من فاس إلى قصيبة من أعمال تلمسان في بلاد الجزائر، وتناسل هنالك، وكان من أولاده السيد الشريف عيسى طلحة وهو أول من دخل إلى الديار المصرية من أجداد صاحب الترجمة.

فهو غصنٌ من دوحة شرف النسب، وفرعٌ من أصل نبل الحسب، وإنسان عين المجد، وبدر فلك السعد، عماد العلم ونبراس الفضل، فعالُه غُرَر، وأقوالُه دُرَر، في الخطابة طويل الباع، وفي الكتابة بارع اليراع، جمع من كل شيء أحسنَه، وأجاد في كل عمل وأتقنه، وسلك على مسيرة آبائه الكرام، فكان ثمرة من شجرة الفخار والسؤدد، فصدق فيه قول القائل:

حيَّ الإلهُ أصولًا أنبتت غصنا ..

جلبابُه الفضلُ لا جلبابُه الوَرِقُ

إن نازع الضدُّ في عليائه فعلى ..

تقديمه الكلُّ بالإجماع متفِقُ

ولد في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٥ هجرية، ورُبِّيَ في منزل والده السيد محمد القصبي في مدينة طنطا، مضرب قبة القطب النبوي، الشريف السيد أحمد البدوي، ونشأ على مثال والده مجتهدًا في طلب العلم، ولوعًا باقتناء كنوز الفوائد، فحفظ القرآن واعيًا لمعانيه، واستظهر متون العلوم على اختلاف أنواعها، وأمعن في فصولها، محيطًا بفروعها وأصولها، وكل ذلك في أقرب ما يصدق به العقل من الزمن.

ولما ارتوى من مناهل الدراسة تولى وظيفة قراءة البخاري في الجامع الأحمدي، وأخذ المرتب لها من ديوان الأوقاف في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٧٣ هجرية وعمره وقتئذ لا يتجاوز الثامنة عشرة من السنين، على أن ارتقاءه إلى منصات التدريس لم يشرف به إلى درجة الخيلاء، بل كان كل يوم يتفرغ للجلوس خاضعا خاشعا بين يدي والده والعلماء الأعلام، يأخذ عنهم علم ما يجهل، ويستكمل ما نقصه من أصول المسائل.

ولما انتقل والده بدعوة ربه إلى دار الآخرة كان لصوت نعيه صدى شجون في الديار المصرية، وكثر أسف الخديوي، حتى أدّى به إجلال المصاب إلى الأمر بتعطيل دواوين الحكومة في طنطا يومَ توفي، وهو يوم الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ هجرية، وبعد خمسة أيام من تاريخ وفاته استدعى الجناب الخديوي صاحبَ الترجمة وعينه مكان أبيه في وظيفة مشيخة الجامع الأحمدي، وألبسه حُلّتَها السنِيّة الرضية، وخاطبه بما عزّاه بعض التعزية عن مصابه، في جمعٍ مِن أكابر العلماء وأجلة الأساتذة المرؤوسين، بحضرة إمام العِلْم الشيخ العباسي المهدي شيخ الإسلام ومفتي الأحكام في الديار المصرية، وما منهم إلا مَن حَمِدَ الخديوي على رقة طبعه وتفقده لأهل بيوت العلم، وقاموا جميعهم داعين له، وانصرفوا، وعاد صاحب الترجمة إلى مدينة طنطا منعكفًا فيها على تلقين العلم وخدمة الفقراء، قائمًا بما يجب عليه لمقام الرفيع ومقام الوضيع، ناظرًا في ذلك رضى المولى سبحانه وتعالى.

وفي سنة ١٣١٢هـ قام بعض أهل الجامع وشكا منه لغرض في النفس، فاستقال الشيخ

من وظيفته، وصدر الأمر الكريم بانفصاله عنها وضم الجامع الأحمدي إلى إدارة الجامع الأزهر.

ونظرًا لتعلقه بمحبة العلم فقد كان يتردد دائمًا إلى الجامع الأحمدي ليمد المجاورين بإحسانه ونصائحه، وهو في طبعه الكريم لا يقفل دون سائلٍ بابًا، ومن قصده في حاجة لا يرجع من عنده خائبًا، ومآثره الحسنة أشهر من أن تنعت بوصف، فهو قد بنى لله مسجدًا بقرب طنطا قرب المدرسة الأميرية خلاف المسجد الذي بناه بها والده.

وبنى أيضًا سبيلًا لشرب الناس، وبجانبه حوضًا لشرب البهائم، وبنى اثني عشر مدفنًا لدفن الفقراء، وذلك جميعه أنفق عليه من ماله الخاص» انتهى من كتاب «مرآة العصر» بتصرف يسير.

وقد ترجمه العلامة الدكتور أسامة السيد الأزهري حفظه الله ترجمة رائقة في موسوعته الغراء «جمهرة أعلام الأزهر الشريف»، وجمع ما تفرق من ترجمته في بطون الكتب والمراجع، من مظانها وغير مظانها؛ فأتى من ذلك بما كفى وشفى(٢).

ولما تولى مشيخة الجامع الأحمدي أنشد العلامة شهاب الدين أحمد الحُلواني الخليجي [ت١٣٠٨هـ] (وهو من تلامذة والده) يهنئه قائلًا:

قيل زيد يليق شيخًا، وحاشا ..

ما سوى ابن الإمام فيها بنافعْ

قُضِيَ الأمرُ من يشا فليؤرخْ ..

أُسْوِيَ ابنُ الإمام شيخَ الجامعْ

(٢) انظر: «جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين» للدكتور أسامة الأزهري (٢/٢٢٧-٢٢٨)، طبع مكتبة الإسكندرية، ١٤٤٠هـ ٢٠١٩م.

ونال نقابة الأشراف بطنطا، كما نال كسوة التشريف العلمية من الدرجة الأولى، وكان إسناده العلمي الذي يجيز به: عن أبيه السيد محمد إمام القصبي، عن العلامة محمد الطوخي، عن العلامة حسن القويسني، عن العلامة محمد الأمير الكبير بما في ثبته.

وتوفي رحمه الله تعالى سنة ١٣١٦ هجرية (٣).

وكان رحمه الله تعالى مواظبًا على الاحتفال بالمولد الحسيني الشريف في منزله بالقاهرة، يدعو إليه العلماء والكبراء؛ فجاء في «جريدة الإسلام» في عددها التاسع، الصادر في غرة جمادى الأولى سنة ١٣١٢هـ الموافق ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٩٤م ما نصه:

«واحتفل حضرة العالم الفاضل السيد محمد القصبي شيخ الجامع الأحمدي بمولد سيدنا الحسين رضي الله عنه، فأمَّ منزلَه بالجمالية حضراتُ صاحب السماحة السيد البكري نقيب الأشراف، وشيخ المشايخ، وأصحاب الفضيلة: الشيخ محمد البنا مفتي الديار المصرية، والشيخ الرافعي، والشيخ حسن الطويل، والشيخ سليمان العبد، والشيخ سليم القلعاوي ، وغيرهم من العلماء والذوات والأعيان، وقد أحييت تلك الليلة بتلاوة الآيات القرآنية الشريفة ، والأوراد المباركة، ووزعت الصدقات، ثم ختمت الحفلة بالدعاء لسمو خديوينا المعظم، ورجال حكومته السنية»(٤).

وعائلة القصبي عائلة عريقة لها تاريخ ديني

(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق (ص: ٢٢٧-٢٢٨)، نقلا عن «جريدة الإسلام»، عدد ٩، السنة الأولى (ص: ٢٠٧)، الصادر بتاريخ غرة شهر جمادى الأولى ١٣١٢هـ الموافق ٣٠ أكتوبر ١٨٩٤م.

ووطني وسياسي عريق، ومن أشهر أحفاد صاحب الترجمة في هذا العصر: معالي النائب السيد الدكتور عبد الهادي أحمد عبد الهادي عبد العزيز حامد حسن القصبي، شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وعضو مجلس النواب المصري، وصاحب الترجمة عم جده.

شعره:

للسيد محمد القصبي شعر فائق، ونظم رائق، وقد جمع عصريُّه الأستاذُ عزيز أفندي زند، مدير جريدة «المحروسة» ومحررُها، مختاراتٍ من شعره تزيد على السبعين قصيدة ومقطوعة شعرية، في شتى الموضوعات وعلى مختلف بحور الشعر، وضمنها شيئًا من شعر والده، وتكفل بطبعها في حياته؛ باسم: «العقد الذهبي، وهو مجموع مختارات أشعار حضرة العلّامة العامل والفهامة الفاضل السيد محمد القصبي، شيخ الجامع الأحمدي»، وطبعت بمطبعة «المحروسة» سنة ١٨٩١م، وأهدى الكتاب إليه بقوله:

«إلى حضرة قرة عين الكمال، وغرة جبين الإفضال، سيدي العزيز الأكرم، السيد محمد القصبي الأفخم، أطال الله وجوده، وأدام كرمه وجودَه. هذه -أعزّك الله وأبقاك، وحيّاك وبيّاك- غُرَرُ بناتِ أفكارك، ودُرَرُ مختارات أشعارك، قد التقطتُها من أبياتك الأبيَّات[٥]؛ وهي متفرقة متناثرة، فأودعتُها في بطون هذه الصفحات؛ فجاءت مجموعةً فاخرة، ثم رأيتُ أن أجعلَها تحفةً برسم فضلك الزاهي الزاهر، وطُرفةً إلى مقام نُبْلِك الباهي الباهر، راجيًا أن تمهد لها سبيل القبول لديك، ليكون مبدأُ الفضل منك ومرجعُه إليك، وحسبي أن يكون رجائي مقبولا، فيتحقق ما كان منك مأمولًا»[٦].

وكان متفنِّنًا في شعره، بارع التصرف فيه، قوي التمكن منه، وكان ينظمه من صغره؛ حتى إنه أرَّخ لظهور أول شعرة شيبٍ في عارضه وهو ابن واحد وعشرين سنة في قصيدته:

يا شيبُ مالك قد أتيتَ مبادرًا ..

قبل الأوان منغصًا لذّاتي

ولم يخلُ شعره -على جزالته وفصاحته- من أن يكون موضوعًا للنقد الأدبي، فقد ألف الشيخ علي محمد سالم بن سالم المدرس بالجامع الأحمدي كتابا سماه: «الانتقاد الأدبي، على ستارات أشعار السيد محمد القصبي، التي وضعها في كتابه الذي سماه العقد الذهبي»، طبع سنة ١٣١٢هـ، مما يشير إلى رواج سوق الأدب، وأريحية العلم بين أهله، وأن البساط فيه «أحمدي» كما يقال.

القصيدة:

هذه القصيدة المباركة قالها الإمام القصبي في مناسبة بناء المقام الأحمدي الشريف، وذكر فيها أن هذه المناسبة كانت أشبه بمحفل توافد إليه الكبار والصغار، وشارك فيه الفقراء والأمراء، وتساعد فيه الرجال والنساء، وتعاون فيه المسلمون والمسيحيون؛ في مظهرٍ وطني راقٍ تُفاخِرُ به مصرُ بلادَ الدنيا، فهي صاحبة أعظم تجربة وطنية للتعددية عبر العصور. وتطرّق الإمام القصبي إلى

(٥) «الأبِيّــات»: جمع مؤنث سالم لكلمة «أَبِيّ»؛ أي: أنّ أبياتك أبِيّة (مستعصية) على المحاكاة من فصاحتها وبلاغتها.

(٦) «العقد الذهبي» (ص: ٤).

ما حصل في هذا البناء من كرامات ونفحات، وما حصل للمشاركين فيه من تواصل الأفراح، حتى واصلوا المساء بالصباح، وأنساهم السرورُ والطرب، كلَّ عناء وتعب، وملأها بمديح القطب النبوي والوارث المحمدي السيد أحمد البدوي، رضي الله عنه وأرضاه، وقدس الله سره، والإشادة بكراماته التي عمت البقاع، وانتشرت في الأصقاع، منوِّهًا بعظيم رتبته، وحاثًّا على التوسل بحضرته.

مناسبة القصيدة:

جاء في ديباجة القصيدة في كتاب «المجموع الظريف، الحاوي غرائب الأطاريف» للأستاذ حسن وهبة: «ولحضرة الفاضل والهمام الكامل، الحسيب النسيب، ذي الرأي المصيب، السيد محمد القصبي الإمام، نجل الحبر الفاضل شيخ الإسلام، مدحًا لجناب سيدي أحمد البدوي، ومشيرًا لما جرى عند بنائه من الكرامات العجيبة، والأحوال الغريبة. عُفِيَ عنه آمين»[(٧)].

وجاء في «العقد الذهبي»: «وقال هذه المِدْحةَ السنِيّة، والنبذة التاريخية، في بناء مقام القطب النبوي، سيدي أحمد البدوي»[(٨)].

وهذه المناسبة الشريفة كانت عام ١٢٨٥ هجرية، كما يُعرَف من حساب الجُمَّل[(٩)] في آخرها، وهذا العام الهجري يوافق العامين الميلاديين ١٨٦٨ و١٨٦٩، وذلك في فترة حكم الخديوي إسماعيل التي امتدت من: ١٨ يناير ١٨٦٣م إلى ٢٦ يونيو ١٨٧٩م.

تجديد لا بناء:

والمقصود هنا ببناء المقام الأحمدي: تجديدُه، لا أصل بنائه؛ فإن مقام السيد البدوي رضي الله عنه كان مبنيًّا قبل ذلك، ووسَّعه السلطان الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي [ت٩٠١هـ].

ولما جاء علي بك الكبير [ت١١٨٦هـ] جعل الزاوية مسجدًا فخمًا، وبُنِيَت لها ثلاثُ قِباب: كبراها للسيد البدوي، والقبة الغربية لسيدي عبد العال، والقبة الشرقية لسيدي مجاهد شيخ المسجد الأحمدي في عصر علي بك. وصُنِعَتْ حول ضريح السيد البدوي رضي الله عنه مقصورة من النحاس، نُقِشَتْ عليها سلسلةُ نسبه الشريف، وذلك عام ١١٨٦ هجرية؛ حسبما دُوِّن على المقصورة.

وفي عهد الأسرة العلوية نال المسجد تجديدًا كثيرًا، بدءًا من الخديوي عباس باشا الأول [ت١٢٧٠هـ] الذي اعتنى به مرتين: مرة عام ١٢٥٢ هجرية عندما كان مديرًا للغربية، ومرة عام ١٢٦٤ هجرية عندما كان على عرش مصر.

ثم جاء الخديوي محمد سعيد باشا [ت١٢٧٩هـ] فأنشأ المقرأة السعيدية وأوقف عليها الأوقاف.

وفي عهد الخديوي إسماعيل باشا «شمل طنطا بعنايته، وخصها برعايته، وكان له مكان خاص ينزل فيه عندما يزور طنطا، وقد زار السيد البدوي عدة مرات»؛ كما يقول العلامة المؤرخ علي باشا

(٧) الورقة الأخيرة من «المجموع الظريف الحاوي غرائب الأطاريف» (ق: ٤٩)، مخطوط في المكتبة الأزهرية برقم (٧٢٠٥).

(٨) «العقد الذهبي» (ص: ٢٣).

(٩) حساب الجُمَّل: طريقة لحساب الأرقام والتواريخ باستخدام الحروف الأبجدية، ولكل حرف رقم يدل عليه، فيُتوصَّل من جمع الحروف المعينة في كلمة معينة إلى ما تعنيه من تاريخ مقصود، أو يُتَوصَّل من حروف الكلمات المعيَّنة إلى قيمتها العددية.

مبارك[١٠]، «وله جهود مشكورة، ومبرات مأثورة؛ فأوجد أسباب الرقي والعمران في مدينة طنطا؛ إكرامًا للسيد البدوي»؛ كما يقول شيخ الإسلام الأحمدي الظواهري[١١].

مهندس التجديد:

هذه المناسبة في تجديد المقام الأحمدي: كانت ضمن الجهود التي أولاها الخديوي إسماعيل باشا لإتمام الجامع والمقام الأحمدي وتجديده، وكان المتولي لذلك والقائم على ترتيبه وتنفيذه: أحد كبار المهندسين في تاريخ مصر الحديث، المهندس المشهور مصطفى بهجت باشا (مصطفى محرمجي أفندي)، الذي اشترك مع المهندس الفرنسي موجيل بك (Dieudonné Eugène Mougel) في بناء القناطر الخيرية، وصاحب تصميم وبناء ترعة الإبراهيمية، وكان ناظر مدرسة القصر العيني، ثم ناظر مدرسة المدفعية، ثم مفتش هندسة المنوفية والغربية، وقد عهد إليه عباس باشا بوضع تصميم تجديد الجامع الأحمدي، فقام بمهمته خير قيام، إلى أن تم بناؤه في عهد إسماعيل، كما يذكر المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في كتابه «عصر محمد علي»[١٢]، ويفصل ذلك صاحب «الخطط التوفيقية» فيقول: «وقد حصل هدمُه والشروع في تجديده من مدة المرحوم عباس باشا، إلى أن تم على أحسن نظام في زمن الخديوي إسماعيل باشا، وكان رسمه على هذا الوضع الجليل بنظر وملاحظة صاحب العلوم والمعارف، والمحاسن واللطائف، البالغ في فنون الرياضة منتهاها، سعادة المرحوم بهجت باشا عامله الله بالإحسان، وتغمده بالرحمة والرضوان، وجميع مصارفه في البناء وغيره من أوقافه؛ فإن له أوقافًا جمة لا تحصيها إلا الدفاتر»[١٣].

ومن بركات السيد أحمد البدوي رضي الله عنه على هذا المهندس الكريم، أنه بمجرد إنهائه لتجديد المقام والمسجد الأحمدي عينه الخديوي إسماعيل في السنة التي تليها (١٨٧٠م) وزيرًا للمعارف العمومية، وصار بعدها من كبار الأعيان، الذين يشار إليهم بالبنان[١٤].

وصف المسجد والمقام الأحمدي بعد تمام التجديد:

وصف العلامة علي باشا مبارك المسجدَ والمقام بعد تمام تجديده في هذه المناسبة، فقال: «لا يفوقه في التنظيم وحسن الوضع والعمارية من المسجد إلا قليل، وهو في وسط البلد تقريبًا، يحيط به أربعة شوارع، وفي ضلعه القبلي مقام قطب الأقطاب سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، وعلى ضريحه مقصورة من النحاس الأصفر في أحسن شكل، وقبة عالية مثل قبة الإمام الشافعي، وبداخله أيضًا مقام تلميذه سيدي عبد المتعال، ومقام سيدي مجاهد، وبه نحو ستين عمودًا من الرخام الأبيض، وله في تدريس العلوم به شَبَهٌ بالجامع الأزهر؛ ففيه

(١٠) «الخطط التوفيقية» (١٣/٤٥)، المطبعة الأميرية.

(١١) انظر في جهود الأسرة العلوية في تجديد الجامع الأحمدي: كتاب «حياة السيد البدوي: بحث في التاريخ والتصوف الإسلامي» (ص: ١٢٠-١٢٢)، للأستاذ إبراهيم أحمد نور الدين، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م، المطبعة اليوسفية بطنطا.

(١٢) «عصر محمد علي» للعلامة عبد الرحمن الرافعي (ص: ٤٦٥)، دار المعارف، الطبعة الخامسة.

(١٣) «الخطط التوفيقية» (١٣/٤٦)، المطبعة الأميرية.

(١٤) المرجع السابق.

نحو ألفي طالب غير المدرسين، ولهم شيخ كشيخ الأزهر» .[15]

تحقيق القصيدة:

وقعت لي القصيدة اتفاقًا في إحدى المجموعات الخطية بالمكتبة الأزهرية؛ تحت عنوان «قصيدة القصبي في كرامات السيد أحمد البدوي»، فشاقني موضوعها، وراقني مطلَعُها، ورجعت إليها، فإذا هي ضمن مجموع للأستاذ حسن وهبة بعنوان «المجموع الظريف، الحاوي غرائب الأطاريف»، وقد فرغ من تأليفه عام ١٢٨٨ هجرية، وختم بالقصيدة هذا المجموع، فجاءت مسكَ الختام.

وبعد أن كتبتُ القصيدة وضبطتُها وصحَّحْتُ ما تصحف منها، عرفتُ بكتاب «العقد الذهبي»، فسعيت للحصول عليه[16]، فوجدتُ فيه القصيدة مع بعض التغيير والزيادة، فقابلتُ بينهما، وأضفتُ ما زاد من الأبيات، وأثبتُّ ما حصل من التغييرات، وعلَّقت شرحًا لبعض العبارات، ورمزت للمخطوط برمز (خ)، وللمطبوع برمز (ط).

نص القصيدة:

بُشرَى فقد ذهب الزمانُ الأنكَدُ
والسعدُ وافَى والعُلا والسُّؤدُدُ

حاشا نُسَاءُ مِن الزمان وأهلِه
والسيدُ البدويُّ فينا مُنجِدُ[17]

قطبُ الوجودِ أبو الوفودِ ومَن له
هذي الكراماتُ التي لا تُجْحَدُ[18]

مِن بحره أهلُ الصفا شربوا وكـ
ـلُّ الأولياءِ بفضله تتزودُ

أطرِبْ مسامعَنا بذكر البعض مِن
أوصافه تَحيَى القلوبُ وتَسعَدُ

واذكر حديثَ بنائهم لمقامه
والناسُ فيه سرورُهم متزايدُ

كم في بناءِ مقامه مِن آيةٍ
ظهرَتْ تقوم لها العقولُ وتقعدُ[19]

مِن كلِّ فجٍّ قد أتَوْه تطوُّعًا
بالجِدِّ[20] فيه تحالفوا وتعاهدوا

وتجمَّعَتْ مِن كلِّ جنسٍ أمّةٌ
وتفرقوا في الشغل نارًا تُوقَدُ

وتألفت أممُ النصارى فيه مع
أمم اليهود بحالةٍ لا تُعهَدُ

وبه الرجالُ مع النساءِ وكلُّهم
لم يشتغل بسوى الذي هو قاصدُ[21]

وبه عظيمُ الناس صار مساويًا
لحقيرهم لا يعتريه تقاعُدُ[22]

والناس فيه كالسُّكارَى لم يرَوْا
تعبًا وكلٌّ هائمٌ متواجدُ

ونَسُوا همومهمُ وأنشَدَ حالُهم:
هذا الشقاءُ هو النعيم الخالد

وتواصلَتْ أفراحُهم في ليلهم
ونهارِهم حتى انتهى ما يُقصَدُ

(١٥) المرجع السابق.

(١٦) أرسل إليّ صورتَه أخي الدكتور عبد الرحمن حسن حفظه الله، مشكورًا مأجورًا.

(١٧) في (خ) بدل البيتين الأول والثاني: بيت واحد، هو: ما ساءنا هذا الزمانُ الأنكَدُ .. والسيد البدوي فينا منجدُ

(١٨) في (خ): لا توجدُ، بدلا من: لا تجحدُ.

(١٩) هذا البيت ليس في (خ).

(٢٠) في (خ): بالجار.

(٢١) هذا البيت والذي قبله ليسا في (خ).

(٢٢) لفظ هذا البيت في (خ): وغدا العظيم مع الحقير مساويًا .. في الشغل لم يلوُوا ولم يتقاعدوا

وأتَتْ لنا البُشرَى تُخَبِّرُ أنه
(٢٣) تم المقامُ الأحمديُّ الأمجدُ

فعبادةُ الرحمن عاد نظامُها
فيه فحمدًا دائمًا لا ينفَدُ

في كل وقتٍ فيه هذا ذاكرٌ
(٢٤) ربي، وذا يتلو، وذا يتهجد

من رام يسأل عن مقامٍ للدُّعا
(٢٥) فيه قبولٌ فهو هذا المشهدُ

قم فابتهل فيهِ إلى الله تَجِدْ
(٢٦) حُلَلَ القبولِ عليكَ منه تجَدَّدُ

قم واطلبِ الإحسانَ فيهِ تُعْطَهُ
فالخيرُ فيه دائمًا مُتوارِدُ

قم واطلب الرضوان فيه فإنه
(٢٧) برحابه حاشا يُرَدُّ القاصدُ

واطلُبْ مِن الخيراتِ مهما تبتغي
فيه تَجِدْهُ حاضرًا لا يَبْعُدُ

بل بالدخول بلا تَطَلُّب حاجةٍ
(٢٨) تُعطَى نصيبَك كلما تتردَّدُ

بل في أقاصي الأرض تبلغ كلما
(٢٩) تهوَى وترغبُ إن تقُل: يا سيدُ

كم أخبرَتْ أممٌ بأنّ بلادَهم
للسيد البدوي فيها مَشهَدُ

كم فرِّجَتْ كُرَبٌ إذا ذُكِرَ اسمُه
ونجا الغريقُ بقوله: يا سيدُ

كم فُكَّ عانٍ، كما أزال ظُلامةً
كم في تفاريج الهموم له يدُ

كم دَلَّ ركبًا في الفيافي تائهًا
ومشى أمامهمُ إلى أن يهتدوا

كم رَدَّ مسروقًا تقادم عهدُه
وشفا مريضًا طِبُّه لا يوجد

وإذا الكلامُ انجرَّ في أوصافه
(٣٠) ضاقت دفاترُنا وكَلَّ المنشِدُ

ونهايةُ الأقوالِ: رتبتُه غدَتْ
تحتَ النبوة لم يَصِلْها عابدُ

ثم الصلاة مع السلام على النبيّ
وآله مهما أضاء الفرقدُ

وصحابه والتابعين وأوليا
بحقيقة الشرع الشريف تقلَّدوا

والسالكين طريقَهم والزائريـ
ـن ضريحَهم ما تم منها مقصدُ

أو ما حَلَتْ هذي القصيدُ بمَن به
شرُفَتْ وتم لها النظامُ الأنضدُ

أو ما غدا القصبيُّ وهو محمدٌ
(٣١) نجلُ الإمام بجاهه يستنجدُ

أو قال يضبط ما جرى أرِّخْ «فقد
(٣٢) تَـمَّ المقامُ الأحمديُّ المفرَدُ»
١٨٤ ٤٤٠ ٢١٢ ٩٤ ٣٥٥
= ١٢٨٥ هجرية

(٢٣) هذا البيت ليس في (ط).
(٢٤) هذا البيت ليس في (ط).
(٢٥) هذا البيت ليس في (خ).
(٢٦) التاء في الفعل «تجدَّدُ» يصح ضمُّها: على أنه فعل مبني للمجهول، ويصحُّ فتحُها: على أن أصلها «تتجدد» وحُذفَت إحدى التاءين تخفيفًا.
(٢٧) هذا البيت ليس في (خ).
(٢٨) هذا البيت ليس في (ط).
(٢٩) هذا البيت ليس في (خ).
(٣٠) الشطر الأول في (ط): وإذا أرَدْنا حصرَ كل صفاته، بدلا من: وإذا الكلام انجرَّ في أوصافه.
(٣١) هذا البيت والأبيات الثلاثة قبله ليست في (خ).
(٣٢) الشطر الأول في (خ): أو ما حدا حادٍ يؤرخُه فقد، وبعد هذا البيت في (خ): لمحمد القصبي نجلِ محمدٍ .. أعني الإمامَ نشيدُها والمنشدُ



الحمد لله ، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه ...

أما بعد، فإن الشيخ الجليل السيد عبدُ الله بن الصدِّيق مِنْ كِبارِ الأعلام البارزين في مجال خدمة العلم الشريف؛ الذين أثروا في مسيرة العلوم الإسلامية في العصر الحديث تأثيرا بالغًا، وليس أدل على ذلك مِن كثرة مؤلفاته، وما رزقه الله تعالى فيها مِنَ القبولِ، فقد ظلَّ مُدة خمسين عاما أو يزيد يُعلِّم ويدرس ويفتي ويخطب ويكتب.

وقد جاءت أعماله هذه خُصوصًا مُؤلفاته وتحقيقاته دقيقة محكمة على نمط الأوائل من كبار المصنفين ذوي التحقيق والإجادة.

وقد كان للشيخ أيضا نَفَسٌ عالٍ في تحقيقِ المسائل الدقيقة، جعله يَسلك في بعض الأحايين مسلك أئمة الاجتهاد، وينزعُ في ذلك منزع المستقلِّينَ مِن غيرِ أن يقعَ تحت وطأة التقليد التي من شأنها أن تكبحَ جماح عقله الطُلعة الوثاب.

وإنَّ النَّاظرَ في كتبه يجد أنه يقرر رأيه بالحجة والدليل ، ويعتذر لغيره إنْ خالفه في الفقه والفروع ، غير معنف ولا ساخط ، ولا مُتهجم ، بل يُؤكدُ أنَّ الفقه عملٌ اجتهادي يصيب المرء فيه ويخطئ، وفي كلتا الحالتين إذا صلحت النية فهو مأجور. ويجد كذلك فيها الإنصاف العلمي دون تعصب لمذهب أو شخص أو فكرة ، وفيها تقدير العلماء، ولو خالفهم الرأي، أو أثبت أنهم جانبوا الطريق السديد في المسألة التي يبحثها، فينقل عنهم ما صفا له من أفكارهم واجتهاداتهم.

فمثلا تجده يخالفُ أبا بكر بن العربي في بعض آرائه، وابن حزم، وآخرين من الحنفية والمالكية والشافعية، وتراه يقتبس عنهم، ويُكثرُ مِن ذلكَ دُون أدْنى غضاضة، أو تقليل شأن أو تصيد لما يسيئ لهم، أو يحط من مكانتهم .

ونجده كذلك يعلن أنه قد تراجعَ عنْ فِكرة سابقة له، أو رأي كان يراه؛ لأن الدليل قد لَاحَ له بعد ذلك.

وأما منهجه رحمه الله تعالى في التعامل مع التراث، فقد قام على القراءة النقدية الدقيقة ما أتاح له الوقوف على بعض مواطن الخلل والإشكال، ومن

ثم الاشتغال بتصحيح الأخطاء وحل الإشكالات.

وقد ظهرت قدرته العلمية وملكته الاجتهادية في بعض القضايا التي تناولها فوجدنا له آراء علمية يتفرد بها، ومسائل مهمة ودقيقة يختص بها .

وقد كان السيد عبد الله يعتز بما أنعم الله عليه من السبق إلى اجتهاداته وتفرداته، وقد أفرد لذلك رسالة اشتملت على أهم المسائل التى لم يسبق إليها لكنها لم تتم .

قال في أولها : فهذا تأليف عجيب، في موضوع غريب، لم أذكر فيه مؤلفاتي التي بلغت عدتها مائة أو تزيد، ولكن ذكرت فيه ما تفردتُ به مِن المسائل التي لم يسبقني أحد إليها، ولا عرج شخص عليها ، بل هي مما ادخرها الله لي، وألهمني إياها ... والمسائل التي تفردت بها، تقع في علم التفسير ، والحديث والأصول، والفقه والكلام ، والمنطق وغيرها.

ثم أجمل الشيخ هذه الانفرادات، فقال :

في علم التفسيير ، تفردت بثلاث مسائل، وفي علم الحديث بثلاث مسائل أيضا، وفي علم الأصول تفردت بأربع مسائل، وفي الفقه بمسألة، وفي الكلام بمسألة المحال؛ وهي من أعوص مسائله وأصعبها، وفي المنطق بمسألة علمية الإله، ثم قال وتفردت بمسائل أخرى يأتي بيانها .

ومن جملة هذه المسائل التى تفرد بها الشيخ رحمه الله تعالى ما يتعلق بعلم التفسير، فقد ألَّفَ فيه كتابا من أمتعها سماه «بدع التفاسير» وهو كتاب لم يسبق إليه.

وقد اشتمل على علم من علوم التفسير أنشأه وبين قواعده ، تضمن التنبيه على بعض التفاسير المخطئة في فهم كلام الله تعالى، والبعد عن أن تكون من جملة معانيه، لبعد لفظه عنها ، أو مخالفتها لما تقتضيه القواعد المأخوذة من الكتاب والسنة .

ولم يكن لهذا العلم وجود إلا أن الزمخشري كان يقول في الكشاف أحيانا « ومن بدع التفسير» وهو نفسه وقع فيها.

وكان الشيخ أحياناً إذا استغلقت عليه مسألة تركها، وانتظر فيها الفتح من الله تعالى فيأتيه الفتح الإلهي بفهمها ويسارع إلى تدوينها.

ومن هذه المسائل التي استغلقت عليه سؤال يتعلقُ بسورةِ يوسف، فراجعَ التفاسير الموجودة بين يديه، فلم يجد مايشير إلى الجواب عن السؤال، وهو: لماذا ذكرت قصة يوسف عليه السلام مرة واحدة ولم تبعض، ولم تكرر كما حصل فى قصص غيرها من الأنبياء؟

وبعد ثلاثة أشهر ألهمه الله تعالى الجواب، وأثبته فى كتابه «كمال الإيمان في التداوي بالقرآن »، وغيره.

وأما ما يتعلق بانفراداته فى علم المنطق، فمنِ المعلوم أن الشيخ كان متمكنا فى علم المنطق عارفا بدقائقه، فقد تتلمذ فيه على يد علماء كبار منهم: العلامة الجليل الشيخ محمد بخيت المطيعي، والعلامة الشيخ محمود إمام عبد الرحمن المنصورى الذى مدحه السيد عبد الله بقوله «لم أر له نظيرا فى التحقيق والبحث وشدة الاطلاع ،مكث في شرح قول السعد : العلم إن كان إذعانا

للنسبة، فتصديق وإلا فتصور». أربعة أشهر.

وماتفرد به في هذا الفن ، هو بيان خطأ أهل المنطق فى تمثيلهم بالإله للكلي الذى وجد منه فى فرد وامتنع عن غيره ، فى جزء سماه «التوقي والاستنزاه عن خطأ البناني في معنى الإله»

قال الشيخ : والداعي إلى تحرير هذا البحث أني درّستُ للطلبة بزاويتنا الصديقية شرح بناني على السلم، ولما وصلت إلى هذا الموضع وبينت لهم خطأ ماقرره بناني كغيره من المنطقيين، طلب مني بعضهم كتابة ذلك البحث ، فأحببت طلبهم لما فيه من عموم الفائدة، وكان أنس رضى الله عنه يقول لبنيه : يا بني قيدوا العلم بالكتابة.

ومن جملة المسائل التي انفرد بها الشيخ أيضا، وهي في علم الكلام : مسألة تعلق القدرة بالمحال وله فيها رسالة بعنوان : «رفع الإشكال عن مسألة المحال».

قال الشيخ « أثبتُ فيها بما لم يسبقني إليه أحد ، والحمد لله، وهي منتفية بضرورة العقل والمشاهدة ، كما قال تعالى: ((وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا)) [الفرقان : ٣]

وقد نبه الشيخ على أن ابن حزم غفل عن أمر خطير «وهو أنه حيث حكم بأن الله تعالى يقدر على فعل المحال ، صار ثبوت العلم والصدق والعدل له من قبيل الجائز لا الواجب، ويكون تنزهه عن الولد والجهل والكذب والظلم جائزا في حقه لا واجبا، وهذه شناعات بالغة ».

ومن المسائل التي تفرد بها أيضا وهي من علم الأصول: مسألة نسخ التلاوة التى خصها بمصنف حافل بالأدلة، وهو «ذَوقُ الحلاوةِ ببيان امتناع نسخ التلاوة».

بين فيه أن نسخ التلاوة ممتنعٌ، وقد جعل الأسباب التي اقتضت امتناع نسخ التلاوة تسعة، من أهمها أنه يستلزم البداء ، وهو محال في حق الله تعالى.

وأن تغيير اللفظ بغيره، أو حذفه بجملته، إنما يُناسب البشر لنقصان علمهم وعدم إحاطتهم، ولا يليق بالله الذي يَعلمُ السرَّ وأخفى . إلى آخر ما ذكره رضي الله عنه في كتابه هذا .

وقد تميزت تفرداته رحمه الله تعالى بالتنوع؛ حيث جاءت فى عدد من العلوم وسار فيها على منهج علمي واضح يقوم على ما تقرر من القواعد المنهجية في مختلف العلوم الاسلامية.

كما قام منهجه في تفرداته على الأدلة والبراهين التي يجتهد في أن تكون قوية وكثيرة وعلى التثبت والتحري والتحقيق في عرضِ أقواله وأقوال غيره من العلماء.

وقد قامت الدكتورة الفاضلة فدوى بنكيران بجمع هذه الانفرادات والإضافات العلمية في رسالة متميزة بعنوان « الاجتهادات والإضافات العلمية للسيد عبد الله بن الصديق الغماري»، فألقت الضوء على نزعة السيد عبد الله بن الصديق الاجتهادية، وحركته التصحيحية في مجال العلوم الإسلامية، ففتحت بذلك الباب نحو دِراساتٍ مُستفيضةٍ في تُراثِ السيد عبد الله. فاللهمَّ اجزه عنَّا خيرَ الجَزاءِ.





د. مختار محسن الأزهري

أمين فتوى بدار الإفتاء المصرية

facebook.com/mokhtar.mohsn

اختص الله جل في علاه بعض عباده بخصائص تُظهر عظيم مِننه، وتكشف عن واسع فضله؛ ومن هؤلاء الذين اختصهم الله بهذه الخصائص مولانا الإمام المجتهد المتفنن السيد عبدالله بن الصِّدِّيق الغماري؛ ذلك العَلَم الذي نحتفل بذكراه في آخر جمادى الآخرة من كل عام.

كان رحمه الله متفننًا في علوم شتى فهو المحدث والفقيه والأصولي والمتكلم واللغوي والمفسر، وإذا أردت دليلًا على كل هذه الصفات؛ فعليك أن تُطالعَ قائمة كتبه التي تزيد على خمسين كتابا ورسالة، فإن هذه المصنفات قد استوعبت موضوعات شتى وحلت إشكالات عدة.

وقد خصصت هذا المقال لأتناول أحد هذه الجوانب العلمية لمولانا السيد عبد الله الغماري وهو جانب العقيدة؛ حيث برع الشيخ وتمكن من علم الكلام بشكل لافت للنظر، حيث تَعرضَ الشيخ لمشكلات عصره، وأسهبَ في الرد على مخالفي عقيدة أهل السنة والجماعة بشكل أسكت خصومه، وأحيا في نفوس أهل السنة والجماعة مزيدَ الحرصِ والاعتناء بنُصرةِ مُعتقد أهل الحقّ.

وما سأعرضه هنا هو من قبيل الإشارة إلى جهود الشيخ رحمه الله في علم الكلام، وإلا فإن ما تركه لنا الشيخ رحمه الله لا يكفيه هذا المقال ولا عشرات مثله؛ لبيان فضله وواسع علمه رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وقبل التعرض إلى جهود الشيخ في مجال علم الكلام، لا بد من الإشارة إلى أن تمكن الشيخ في علم الكلام وما أظهره الله على يديه من مصنفات علمية فيه هو بسبب تمكن الشيخ في سائر علوم الشريعة وبنفس المرتبة! فلولا تمكن الشيخ في علوم الأصول والحديث واللغة والتفسير لما كانت كتاباته في علم الكلام بهذه القوة والبراعة؛ فسبحان من وهب العلوم لمن شاء من عباده.

أما ما صنفه الشيخ في مجال علم الكلام، فإنه يتنوع ما بين الإلهيات والنبوات والسمعيات؛ غير أن ما صنفه الشيخ ليس تكرارًا لما سبق، بل هو من قبيل التجديد وإحياء مناهج العلماء، حيث عاصر الشيخ خاصة عندما كان في مصر عددا من التيارات المختلفة التي كادت تعصف بثوابت الدين عند عموم المسلمين؛ فانتهض الشيخ منافحًا عن منهج أهل السنة والجماعة ضد هذه التيارات، لعلمه أن هذا واجب الوقت على العلماء الثقات.

فكان يتابع الأفكار التي تنتشر في المجتمع، أو التي يتبناها بعض المتصدرين لتعليم الناس فيرد على ما خالف فيها صحيح الاعتقاد، ويفند ما انتشر من الشبهات؛ ليقرر حقائق الدين وثوابته.

وللشيخ مصنفات عديدة في علم الكلام منها :

١- فتحُ المعين في نقد كتاب الأربعين.

٢- التحقيق الباهر في معنى الإيمان بالله واليوم الآخر.

٣- استمداد العونِ لإثبات كفر فرعون.

٤- قُرة العينِ في إرسال النبي للثقلين.

٥- إرشاد الجاهل الغوي إلى وجوب اعتقاد أنَّ آدمَ نبي.

٦- الحجج البينات في إثبات الكرامات.

٧- إقامة البرهان على نزول عيسى آخر الزمان، المهدي المنتظر.

٨- رفع الإشكال عن مسألة المحال، وغيرها من المصنفات.

وحتى لا يتشعب بنا المقال، سنكتفي بعرض منهج الشيخ من خلال كتابين اثنين من هذه الكتب وهي:

١- كتاب «فتح المعين في نقد كتاب الأربعين»

وأصل هذا الكتاب هو كتاب «الأربعون في دلائل التوحيد» للهروي المتوفى ٤٠٨هـ وقد أعيد طبع الكتاب بتحقيق جديد عام ١٤٠٤ هـ حيث شاع في تلك الفترة إعادة طباعة الكتب التي تشتمل على عقائد المجسمة والمشبهة؛ مع قيام الهيئات التي ترعى أفكار ومعتقدات الوهابية أو ما يسمى زورًا بالسلفية بنشر وتوزيع هذه الكتاب في المساجد والجامعات!

وهو ما دفع الشيخ رحمه الله لتصنيف كتابه في الرد على محتوى كتاب الأربعين حرصًا منه على التصدي لهذه الحملة الضارية على أهل السنة والجماعة من قبل تيارات تريد تفريق الأمة

والتشكيك في عقائدها المستقرة باسم السلف.

وإذا تأملنا فيما كتبه الشيخ في هذا الكتاب فإنه قد قرر في مقدمته ما يعد تقعيدًا لمسلك أهل السنة والجماعة في التعامل مع الصفات الخبرية والأمور الاعتقادية بشكل عام بحيث يقطع الطريق على كل عقيدة منحرفة وفكر ضال؛ فقال رحمه الله: «الفروع الفقهية المتعلقة بالعبادات والمعاملات مبنية على الظن، واليقين فيها قليل، ولذلك حصل فيها الخلاف بين الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب، وكان فيهم المخطئ والمصيب، ولم يضلل أحد منهم مخالفه إذا أخطأ، بل يعتقدون أنهم جميعا على هدى وسنة، وأن المخطئ مأجور على اجتهاده.

وأما التوحيد فالأمر فيه يختلف؛ لأن اليقين في مسائله مطلوب حتمًا؛ خصوصا ما يتعلق بصفات الله تعالى...»[(١)]

وقد قرر الشيخ عددًا من الشروط المهمة لإثبات صفة معينة لله عز وجل أو نسبتها له تعالى.[(٢)]

وهكذا كان الشيخ في بيانه لمسائل علم الكلام معتنيًا بتقرير القواعد وبيان الحقائق دون مواربة أو مداهنة.

ولعل هذا المسلك الذي تميز به الشيخ رضي الله عنه في الدفاع عن منهج أهل السنة والجماعة يكشف عن وعي منه قُدِّس سِره بالأخطار التي تهدد الأمة في دينها ومعتقداتها؛ ولا شك أن ما يتعلق بمبحث الإلهيات هو الأساس الذي تدور عليه سائر مباحث الاعتقاد؛ وصيانته عن أوهام المشككين من أوجب الواجبات.

وقد ظهر في هذا النقد، التمكن من سائر العلوم الشرعية، فهو يوجه سهام النقد من خلال تطبيق قواعد علم الكلام تارة، ومن خلال قواعد اللغة والتفسير والمنطق تارة أخرى، كما هي العادة المطردة في أئمة المسلمين وعلماءهم الذين اصطفاهم الله لبلاغ دينه ونشره بين الناس، فحملُ الدين أمانة لا تتيسر إلا لمن تأهل لها من خلال التمكن في العلوم الشرعية والاطلاع على الواقع وما فيه من مشكلات وأفكار.

٢- كتاب «التحقيق الباهر في معنى الإيمان بالله واليوم الآخر»

وهو مصنف ألفه الشيخ ليرد على أحد دعاة وَحدة الأديان الذين يزعمون أن الإيمان بالله واليوم الآخر كافيان في النجاة يوم القيامة دون الإيمان بخاتم النبيين ﷺ وما جاء عنه، وهي دعوى لا تزال تجدُ آذانا صاغية خاصة في بلاد الغرب، فانتهض الشيخ رحمه الله لتفنيد هذه الدعوى، وإقامة الأدلة القاطعة على وجوب الإيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى.

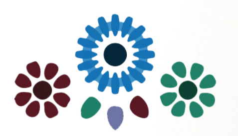
وأخذ الشيخ رضي الله عنه يستعرضُ كلّ ما جاء من الأدلة في هذه المسالة ويظهر ضعف ما تمسك به أصحاب هذه الدعوى التي تفضي لمساواة مَن يؤمن بنبوة سيدنا محمد ﷺ ومن يكفر بنبوته يوم القيامة، وفي سبيل ذلك صال الشيخ وجال في

(١) فتح المعين بنقد كتاب الأربعين للشيخ عبد الغماري ١١/ ١ ضمن موسوعة العلامة الشيخ الغماري ط.دار السلام

(٢) انظر المرجع السابق ١١/١

استخدام أدوات علم أصول الفقه وقواعد التفسير وضوابط العقل والنقل –وهو المتمكن منها تمام التمكن– من أجل بيان بطلان هذه الدعوى، ومدى خروجها عن قواطع الشرع الشريف.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله.



أعوذ بك من مقام الكاذبين
وإعراض الغافلين
اللهم لك خضعت قلوب العارفين
وذَلَّت لك رقاب المشتاقين
إلهي : هَبْ لي جُودك
وجللني بسترك
واعف عن تقصيري بكرم وجهك

الإمام الشافعي قدّس الله سرّه



٩ مجدد القرن : العالم الكبير والمحقق الشهير

خالد محمد غز

حينما يهم التلميذ أن يتحدث عن أستاذه أو المريد عن شيخه يصبح الشأن صعبًا مقيدًا بالحرص ومشروطًا بالتحري، فما الحال إذا ما كان هذا الأستاذ والشيخ عالمًا ربانيًا ذا قدم راسخة في العلم وولي من أولياء الله تعالى شهد له أكابر علماء عصره، بل ونهل البعض منهم من علمه واستمدوا من أنوار ولايته، فلا شك أن الحديث سيكون أكثر صعوبة وأشد احتياطًا.

وللحق هذا ما شعرت به حين هممت بالكتابة عن سيدي الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، وقد تريثت كثيرًا مترددًا وسألت نفسي من أنت لتتحدث عن مثل هذه القامة وما الذي تود أن تتحدث به ومن أي زاوية تريد أن تنظر لمثل هذه شخصية، وبينما كنت تائهًا في حيرتي هذه تنبهت فجأة وأدركت سبب ترددي وحيرتي، فقد وجدتني أقف على باب الجلال والهيبة وهذا ما قيدني، وإذا خاطر يقول لي يا مسكين: هلا بحثت عن باب آخر تلج منه فإذا بي أدور دورة حول الأسوار العالية لحرم مولانا فبدأ يلوح لي من باب مكتوب عليه الحب، فولجت منه فأُذن لي بالدخول.

هذا الحب الذي انتقل إلينا عبر سلسلة النور التي تنتهي إلى مولانا وشيخنا سيدي علي جمعة رضي الله عنه والذي لا تخطئ العين مدى محبته التي يكنها لشيخنا الغماري وهو ما لا يخفى على من يرى عيني فضيلته وهو يحكي عن شيخه الغماري، فيشاهد فيهما بريق العشق لجناب شيخه الذي اختلطت محبته بشغاف قلبه حتى أنه يكاد المستمع أن يشم عبير الشيخ وهو يتسلل منسابًا بين كلماته بل تكاد ترى الشيخ متجسدًا أمامك من تكثف عبق تلك المحبة، فقلت أدخل من هذا الباب الواسع، مستعينًا بالله تعالى مستمدًا من أنوارالسلسلة متحدثًا على قدري وطاقتي عن بعض جوانب برزت لي من ملامح تلك الشخصية الفذة النابهة النادر تكرارها.

وقد آثرت أن يكون عنوان المقالة (العالم الكبير والمحقق الشهير) اقتباسًا وتيمنًا بما بشره به

والده رضي الله عنه ردًا على خطاب أرسله إليه شيخنا السيد عبد الله الغماري حينما كان موجودًا بمصر المحروسة يشكي لوالده ما يحسه من ضيق وقنوط وكان ذلك عامه الأول فيها، فرد عليه والده وقال: «كيف تقنط في مصر أم الدنيا ؟! بل اصبر وسوف تكون عالِما كبيرًا ومحققًا شهيرًا».

وقد أسست مقالتي المتواضعة هذه على بعض ما ورد عن سيرة الشيخ ومسيرته التي كتبها بنفسه تحدثًا بنعمة الله عليه في لمحات متسارعة، وومضات لامعة جمعتها ووضعت عليها ما وصلني من مدد الفهم.

الشيخ وقّاف عند الإشارات

حين تتأمل شخصية الشيخ تجد أنه كان رضي الله عنه يتمتع بالفطنة والذكاء منذ نعومة أظفاره، وقافًا مع الإشارات تستشعر ذلك من حكايتين؛ الأولى: ما حكاه عن نفسه أنه حين كان في سن الخامسة قرأ القرآن الكريم على الفقيه عبد الكريم البراق جزء عم يتسألون وما فوقه حتى وصل إلى قوله تعالى (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ) فيحكي مولانا ويقول ثم حصلت أشياء، اقتضت انفصاله عن الجامع ثم جاء بعده الفقيه السيد محمد الأندلسي فقرأت عليه بقية الختمة.

وقد استشعرت من تلك الواقعة، وغلب على ظني أن لتلك الحكاية دلالة على الموافقات التي تصدر من الأولياء بغير قصد، وكأن توقف الشيخ عند هذه الآية كان بمثابة الإشارة إلى أن ذلك الفقيه سوف يترك المسجد الذي عُين به وأن الشيخ على حداثة سنه وصلت إليه تلك الإشارة وفهمها وبقيت في ذاكرته إلى أن رواها لنا.

اما الثانية فيقول عنها مولانا: «في أواخر شهر شعبان سنة (١٢٤٩ هـ) ركبنا باخرة يابانية متجهة من انجلترا إلى الإسكندرية أنا والأخ الأكبر والزمزمي، ورفيق معنا اسمه الحاج أحمد عبد السلام الشرقي بالقاف المفقودة وشهرته الشكارة، وقبل الذهاب إلى الميناء طلعت الدور العلوي -من البيت- حيث جلس مولانا الإمام الوالد رضي الله عنه فلقنني (ورد الطريقة الشاذلية)، وأوصاني بالاستقامة ولزوم الجادة فقبلت يده ورجليه وانصرفت وكان قبل ذلك قد حدثني عن الأزهر وعن مصر بوجه عام وأمرنى بتعلم التجويد وعلم التوقيت. أقلعت بنا الباخرة متجهة إلى المشرق وليس فيها مسلمون غيرنا وكان البحر هادئًا والجو صافيًا مع أنه كان فصل الشتاء، وكان الزمزمي لم يتقدم له قراءة شئ من العلم إطلاقًا.

فشرعت أدرس له الأجرومية نطلع بعد صلاة العصر إلى ظهر الباخرة، ونأخذ درسًا فيها واستمر الحال على ذلك ثمانية أيام لم يحصل فيها ما يكدر البال حتى كان اليوم الثامن، وأخبر ربان الباخرة أننا سنصل الإسكندرية عند الفجر، طلعنا لنأخذ درسنا المعتاد وكان موضوعه (ظرف الزمان)، فقلت موضحًا لأخي كيف ينصب الظرف: «نصل إلى الإسكندرية غدًا»، فقال الأخ الأكبر قل: إن شاء الله، فقلت: «لم أقولها وقد تحدد موعد الوصول ؟ وهذه الإسكندرية بدت مبانيها تظهر من بعيد؟»، وانتهى اليوم وصلينا

العشاء ونمنا في وقتنا المعتاد، وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً أو بعدها بقليل هاج البحر هيجانًا عظيمًا قال الربان: «لم ير مثله منذ خمس وثلاثين سنة»، وكانت الموجة لعظمها تغطى المركب تغطية تامة والمركب تتأرجح بنا كالقشرة. ونحن لا نملك أنفسنا من شدة دوار البحر ودوخته، والأواني التي معنا، قلبها البحر رأسًا على عقب، وانكسر بعضها، واعترانا خوف شديد، وزاد في خوفنا أن الربان أخبرنا أن باخرة أمامنا وجهتها كوجهتنا بعثت إشارة إلى الإسكندرية تطلب النجدة لكنها غرقت قبل وصولها، فأيقنا أنا لاحقون بها ويئسنا من الحياة، وكلما غطتنا موجة ظننا أنها مغرقتنا، واستمر الحال كذلك، نحو سبع ساعات رأينا الموت فيها عيانًا ثم لطف الله بنا وخف هيجان البحر بعض الشيء ولم نصل الإسكندرية إلا في الظهر بعد مشقة كبيرة، فحمدنا الله وعلمنا أن هذه عقوبة على ترك المشيئة.ومن هنا نلمح مدى فطنة الشيخ وتوقفه عند الإشارات فأرجع السبب في محنة السفينة إلى عدم تقديم المشيئة.

العلم اللدني لدى الشيخ

لا شك أن المتأمل في أعمال ومؤلفات الشيخ لابد أن يلاحظ أن الشيخ وُهب من نفائس العلوم وفنونها ما ينم عن بصيرة وهبة ربانية تجد آثارها في ثنايا تلك المؤلفات، وقد لا يدرك ذلك سوى الحذاق من أصحاب تلك الفنون، وأذكر هنا كلامًا عن مولانا الإمام الشيخ علي جمعة ما معناه أن المتأمل في مؤلفات الشيخ سوف يكتشف أن مؤلفات وأعمال مولانا السيد عبد الله بن الصديق الغماري لها طبيعة مختلفة وكأن الله تعالى وهبه علومًا ربانية لايحوزها سوى قطب من الأقطاب، وكيف أنّه أكبر من كُتُبه وأكبر من الكُتُب.

وهذا المعنى تجده متدثرًا بثوب التواضع والحياء بين ثنايا كلام الشيخ عن نفسه فتجده مثلاً يقول: «تعلمت بفضل الله عدة علوم، منها ما تلقيته عن شيوخي بالقرويين والأزهر، ومنها ما لم أتلقه من أحد وهو : علوم البلاغة والتجويد والترقيم». ويقول في موضع آخر: «ومن العلوم التي عرفتها بدون أستاذ : علم الإملاء».

وفي موضع ثالث يقول : «وحصلت عندي ملكة أعرف بها إذا سمعت حديثًا أين يوجد وما هي رتبته ولاأكاد أخطئ في ذلك والحمد لله».

الشيخ «مجدد القرن»

لا شك أن من يطالع انتاج الشيخ وتآليفه وعلومه المتنوعة بعين الإنصاف ويضعها في كفة الميزان العلمي؛ سيجد أن شروط التجديد تنطبق على فضيلته وفي ذلك يقول السيد عبد الله بعن الصديق الغماري وهو يتحدث عن نفسه تحدثًا بنعمة الله: «ولا أعرف الآن من شارك في عدة علوم مثل مشاركتي فيها: ولله الحمد والمنة ـ مع تحقيق بحوث في كثير منها بطريقة لم أسبق إليها بفضل الله، ولهذا أرجو من الله تعالى أن أكون مجدد هذا القرن فالواقع أنني لا أرى من يماثلني أو يشاركني في هذا فإذا وجدت عالمًا بالحديث تجده لا يحسن غيره وإذا وجدت فقيهًا وجدته لا

يحسن غير الفقه، وإذا وجدت نحويًا أو مشتغلًا بالبلاغة وجدته بعيدًا عن علم الأصول وما يتبعه، وإذا وجدت اصوليًا عالمًا بالعربية وجدته لا يعرف الحديث، نعم قد يوجد من يشارك في بعض العلوم كالقدماء من علماء الأزهر وعلماء القرويين».

ويكمل الشيخ كلامه فيقول: «ولا أقول هذا افتخارًا ولكن أقوله لإظهار الحقيقة ولبيان كرامة مولانا الإمام الوالد رضي الله عنه حيث وعدني بهذا فتحقق لي كما وعد، وكان في بعض بشاراته لي يقول: لابد أن تكون عالمًا كبيرًا ومحققًا شهيرًا».

إعجاب الشيخ بسمت أهل مصر

تعرف في كلام الشيخ مدى حبه لمصر واعتزازه بسمات المصريين، من ذلك ما ذكره في سياق كلامه عن علماء أهل مصر فيقول تعليقًا على واقعة محنة السفينة التي سبق وذكرناها آنفًا: والاستثناء -يعني قول إن شاء الله- يجري على لسان المصريين كثيرًا، فإذا سألت أحدهم: «ستفعل كذا؟»، فيقول: «بمشيئة الله أو بإذن الله وإذا أتفق اثنان أو أكثر على عمل شئ توجوا اتفاقهم بالاستثناء».

ومن ذلك أيضاً حديثه الذي تستشعر منه تقديره لصفات الطيبة والمسامحة لدى المصريين فيقول: «ولابد أن أسجل هنا ملاحظة هامة، وهي: أن المشارقة يقبلون كلام من يرد عليهم برحابة صدر، ... وهكذا كان الحال في مصر يختلف العلماء والأدباء والكتاب، وتشتد لهجة الرد أحيانًا، ولا يحصل بينهم تقاطع ولاعداء، ومن الأمثال الشائعة عندهم: (اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية)، وكأن الشيخ كان يقدر ويعظم تلك السمة التي يتميز بها المصريين خلافًا لغيرهم.

إدراك الشيخ للواقع وتناوله لقضاياه

ومما لاحظته كذلك عندما قرأت سيرة الشيخ؛ عنايته الشديدة بكل ما يطرح عليه من الأسئلة والقضايا التي يسأله الناس ويستفتونه عنها، فكان رضي الله عنه لا يكتفي فقط بالرد على السائل أو إعطاء الفتوى لمن يستفتيه، بل كان يزيد على ذلك بأن يؤلف في هذه القضية أو تلك المسألة رسالة أو كتابًا. ويبدو لي أن ذلك الاعتناء الزائد من الشيخ رضي الله عنه إنما كان نابعًا من استشرافه للمآلات التي تنم عنها تلك الأسئلة أو استشعاره لخطورة ترك مثل تلك المسائل تتفشى. فلا يحصر الأمر في الرد على السائل فقط، بل يؤلف فيه ما يجمع به كافة الأدلة فتكون مرجعًا للسائل وغيره من بعده، وهذا أيضًا ينم عن مدى سعة علم الشيخ التي مكنته من ذلك بغير تكلف.

ومن ذلك أنه حين سُئل مرّة عن تقبيل اليد وأنه يشاع أن ذلك سجدة صغرى فكتب جزء أسماه (إعلام النبيل بجواز التقبيل)، وحين سئل عن التوسل ألف (اتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء)، وغير ذلك كثير في الرد على المدعين أو المنكرين لأمور أقرها الشرع بدعاوى التجديد.

ونرى كذلك كيف أن الشيخ كان يدرك الواقع ويلاحظ متغيراته، حتى أنه حين لاحظ في عام ١٩٥٣ كثرة حالات الإنتحار بمصر في

الشباب والفتيات وبعض الرجال يلقون أنفسهم في النيل، بسبب السقوط في الامتحان مثلًا، أو فشل في الحب أو الزواج أو مشاكل عائلية فكتب مؤلفًا باسم: (قمع الأشرار عن جريمة الإنتحار).

وهكذا كان رضي الله عنه يلاحظ ويتابع القضايا المجتمعية والآراء الفقهية المستحدثة فلا يقف موقف المتفرج بل كان يؤصل ويوثق ويرد وينافح كتابة وتأليفًا، فيرد من حاد عن الجادة بغير كلل أو ملل لا يخشى في الله لومة لائم.

غالبية شيوخ فضيلته من المصريين

حين أحصيت عدد مشايخ مولانا السيد عبد الله بن الصديق الغماري رضي الله عنه التي أورد فضيلته ذكرهم لاحظت أن أغلبهم من مصر، فقد ذكر فضيلته أن له من المشايخ المصريين؛ ٢٦ شيخًا، ومن المغرب؛ ٢١ ومن الحجاز؛ ٥ ومن الشام ٥، ومن تونس واحد.

وهذا إن دل فإنما يدل على مدى تأثر الشيخ بعلماء مصر في تلك الحقبة المباركة التي قضاها فضيلته بمصر، كما أن له دلالة أخرى على مدى ثراء مصر بالعلماء الكبار على مر الأزمان، و أن مصر بحق هي أم الدنيا كما أكد على ذلك فضيلة والد شيخنا حين كان يحدثه عن مصر ويقول له مصر هي أم الدنيا.

تلامذة الشيخ وعلو قدرهم

من أجلى الأدلة على رفعة قدر الشيخ وعلو مكانته؛ تلامذته، وقد عدد فضيلته منهم ما يزن أحدهم أمة ومنهم نذكر علمين فقط لضيق المجال :

- فضيلة الشيخ / صالح الجعفري رضي الله عنه وأرضاه وفضيلته غني عن التعريف في مجال العلم وفلك الولاية يقول عنه حضرة شيخنا: (والشيخ صالح الجعفري رحمه الله، حج اثنين وخمسين مرة، وكان من الصالحين له كرامات ومكاشفات).

- أما تلميذه الثاني النجيب عالي المقام وصاحب الزمان الغني عن التعريف والبيان مولانا وشيخنا الإمام سيدي علي جمعة رضي الله عنه وحفظه من كل سوء يقول عنه شيخنا: (والشيخ علي جمعة المصري، عالم فاضل، كريم الخلق). ويالها من شهادة تقدير رفيعة صادرة من شيخ ثاقب البصيرة لتلميذه الأنجب الذي رأى فيه وريثه في العلم والسلوك وأنه قد جمع مابين نباهة العلم وسمو الخلق.

مبشرات بمقامه ومكانته

رأي الأستاذ الفاضل الحاج عبد السلام بوعياد مبشرة حاصلها كما قال : «رأيت مولاي أحمد بن الصديق عليه حلة رائعة وهو يتحدث مع والدي (يعنى والده الفقيه العربي بوعياد خطيب الزاوية الصديقية رحمه الله) ، ومع غيره في شأن السيد عبد الله أخيه يقول له (أى السيد أحمد): كل عالم يقصد زيارة سيدى عبد الله إلا ويستقبله ورائحة العطر تعبق منه أصالة وبدون انقطاع من غير أن يتسبب في أستعمالها، ثم قال مولاي أحمد لو حصلت على هذه المزية لأدركت بها مقام الشهادة . قال الرائى : ثم خرجت قاصدًا دار سيدى محمد بن الصديق فوجدت مولاى

عبد الحي وأخاه سيدى عبد العزيز وأخي أحمد وآخرين لم أعرفهم فشرعت أقص عليهم ما سمعته من سيدي أحمد في شأن سيدي عبد الله، وأثناء القصة أقبل سيدي عبد الله وعليه جلابة وزانية أنيقة وفي كفيه قنينتان عامرتان بالعطر الفاخر وأشياء من الطيب فصار الكل يتعجب من هذه الرؤيا.

الشيخ يُرى في صورة حضرة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

قال الأستاذ (محمود سعيد) صليت الصبح ذات يوم وقرأت حزب الفتح الذي انشأته أنا –السيد عبد الله بن الصديق– ثم نمت فرأيت النبى في صورة سيدى عبدالله بن الصديق. وهذه الرؤيا لها دلالة على مدى وراثة الشيخ من حضرة الجناب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالعلماء بحق هم ورثة الأنبياء.

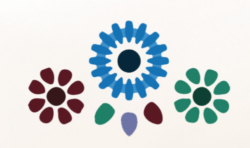
بشرى حضرة النبي له بأنه من نسله الطاهر

يقول السيد عبد الله: «ومنها أني زرت مرة قرية أويش الحجر من جملة زياراتي لها، وألقيت درسًا حديثيًا كعادتي مع أهل البلدة، وانجر الكلام إلى موضوعات متنوعة حتى انتهى إلى أشراف المغاربة وهل هم ينتمون إلى الحسن، فأخبرتهم أن معظم الأشراف عندنا ينتمون إلى الحسن بن على عليهما السلام، وقليل منهم ينتمي إلى أخيه الحسين عليه السلام، وسألوني أن أملى عليهم نسبي فأمليته عليهم، لأنى حفظته وأنا في الكتاب، فقال لي الشيخ الحسيني وكان إمام مسجد وسط البلد ومعلم القرآن يتبرك به أهل البلد لصلاحه وعزوفه عن الدنيا رحمه الله: أشهد أنك شريف منسب حقًا، قلت: وما ذاك ؟ قال: رأيت الليلة الماضية النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقبلت يده؛ ووجدت شخصًا يقعد بجانبه فسألت عنه فقال: هذا ولدي وسيتلو عليك نسبه فأصبحت بيننا على غير ميعاد، وتلوت علينا نسبك.

رؤى الشيخ للأنبياء والملائكة والصالحين

ويقول رضي الله عنه: «رأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومعه الشيخان وغيرهما، ورأيت جبريل عليه السلام، وأخبرني أنه جاء من الأبواء. ورأيت عليًا عليه السلام، ورأيت الحافظ ابن حزم مرّات وابن العربي المعافرى، وعز الدين بن عبد السلام وحصلت بيننا مذاكرة في قاعدة علمية. والسيد أحمد البدوى رأيته مرتين، ورأيت أبا الحسن الشاذلي، شارح الرسالة، والجمل محشى الجلالين، وجدنا أبا العباس ابن عجيبة».

وختامًا هذا غيض من فيض ولمحات من حياة شيخنا حضرة مولانا السيد عبد الله بن الصديق الغماري التقي النقي الولي بن الولي بن الولي صاحب الصدر الرحيب والقلب السليم، حياة ملؤها الجهاد والكفاح والتعلم والتعليم والذكر والتسليم، رضي الله تعالى عن سيدنا الغماري وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة وبارك تلامذته ومحبيه ومريديه.



١٠ أخلاق أهل الجنَّة من كتاب تمام المنَّة



عبد الله أبو ذكري
facebook.com/abdullah.abouzekry

روى الحسن عن أبي الحسن عن جدّ الحسن: «أحسن الحسن الخُلُق الحسن»(١)، وهو الحديث المسلسل بالحُسن، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:» إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وفي لفظ» صالح الأخلاق»(٢)، فتدعونا المحجَّة البيضاء في غالب النصوص القرآنية والنبويَّة إلى حُسن الأخلاق ومعاليها وترك سفاسفها وسيئها، وحُسن الخُلُق موجب للجنَّة، يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الرجل ليبلغ بحُسن الخُلُق منزلة الصائم القائم»(٣)، ويقول: «أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويُؤلفون ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»(٤)!

وقد تأمَّل علماء المسلمين النصوص النبوية الشريفة حتى يؤسسوا برامج عمليّة تطبيقية؛ لتنفيذ الأخلاق في واقع الناس فوجدوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلاَهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الجَنَّةَ»(٥)، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يلفتنا إلى أهميّة العمل بالأخلاق وتحويلها لواقع معيش ينتفع به الخلق، فيقول: إن هناك أربعين خصلة عملٍ تستطيعُ أن تعمله، أو إجراء يمكنك أن تقوم به، أعلاها؛ يعني أصعبها أو أكثرها فائدة وتأثيرًا في دُنيا الناس وعند الله هي منيحة العنز، ومنيحة العنز أن تكون لك عنزة –أنثى الماعز– فتعطيها لجارك يحلب لبنها ويعيدها إليك آخر النهار، ماذا نقص من العنزة؟ لا شيء، بم أفدت جارك؟ بالسقيا والغذاء الطيب وهو اللبن، هل هذا عمل صعب؟ بالعكس هذا عمل بسيط، وغير مكلف، وعلى بساطته تلك إلا أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم يلفتنا إلى أنّ هناك أعمالًا أخرى أقل منه في الكُلفة وأكثر بساطة توجب لنا الجنَّة كذلك.

(١) انظر: العجالة في الأحاديث المسلسلة، ص٧٩. والحديث أخرجه القضاعي في مسند الشهاب، ح٩٨٦.
(٢) أخرجه بلفظ» مكارم»، القضاعي في مسند الشهاب، ح١١٥٦، ولفظ» صالح» البخاري في الأدب المفرد، ح٢٧٣، وغيره.
(٣) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق، ح ٢.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ح ٦٠٥.
(٥) أخرجه البخاري، ح ٢٦٣١.

إذًا فهو يعطينا برنامجًا عمليًّا يمكن تطبيقه الآن مباشرة، فإني إذا قلت لك طبق الأخلاق الحسنة تحتاج أن تتأمل ما هي هذه الأخلاق وكيف أطبقها؟ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اختصر لنا الطريق إلى رضا الله وبيّن لنا بطريقة عمليّة بسيطة سهلة ميسورة، كيف نتخلّق بأخلاق أهل الجنَّة، فنكون من أهلها ونحن نعيش في دنيا الناس.

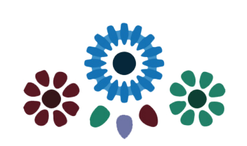
حاول العلماء جمع هذه الخصال من أحاديث أخرى تتكلم عن موجبات الجنَّة، فلم يصلوا إلى جمع الأربعين عنوانًا من الأحاديث النبويّة، حتى جاء السيد عبد ابن الصديق الغماري رضي الله عنه وأرضاه، فوفّقه الله لجمعها في كتاب صغير الحجم عظيم النفع واسماه: «تمام المنَّة ببيان الخصال الموجبة للجنَّة»، فجمع هذه الخصال الأربعون من الأحاديث النبوية الشريفة، ولم يكتف بهذا، بل استخرج ما يزيد على الأربعين رضي الله عنه وأرضاه، ثم علّق عليها بأسلوبه الرشيق الماتع وكلماته البسيطة المختصرة حتى تكون يسيرة على القراءة والتطبيق.

وهذه الخصال الشريفة يصح أن تكوّن في مجملها ما أسماه المسلمون والسادة الصوفيّة خصوصًا: «الخدمة»، فالخدمة هي القيام على شئون الخلق بالنفع طلبًا لمرضات الله وعمارة للدنيا، كما أمرنا المولى سبحانه وتعالى، فلم يفرقوا في الخدمة بين إنسان وحيوان وجماد، فصارت الخدمة مفهومًا واسعًا للعمارة والتزكية، فأنت تُعَمِّر الكون بتطبيق الخدمة وتتزكى نفسك بهذا التطبيق من فضل الله وواسع كرمه، وكان كل إجراء من إجراءات هذه الخدمة موجبًا من موجبات الجنَّة فيحيا الإنسان في جنَّة في الدنيا بتلك الأخلاق والخصال العالية.

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يخبرنا في هذا الحديث بهذه الخصال سردًا، بل أعطانا أولها، وهو ما يدل على أنَّ الأمر ليس على سبيل الحصر وإنما على سبيل المثال، إذا لدينا أربعون عنوان أو فكرة مجرَّدة، وتحت كل واحدة تتعدد الأمثلة ولا تتناهى يمكن أن نستنتجها من واقعنا، فإذا وقفنا عند منيحة العنز وجردنا معناها وجدناه محض إعارة شيء عندي يستفيد منه غيري، ثم يعيده لي مع بقاء عينه وعدم تغيره، فيدخل في ذلك إعارة قلم مثلًا لزميل الدراسة، أو إعارة كتاب أو إعارة شاحن الموبايل وهكذا، وإنّما ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المثال عليها بخصلة منيحة العنز لجمعها عدة خصال في خصلة واحدة، ففيها إعارة، وفيها سُقيا اللبن وفيها إطعام الطعام؛ إذ اللبن غذاء كامل، فضربه لنا من أعلاه وأحسنه وأجمله، ثم يفصِّل لنا السيد عبد الله ابن الصديق الغماري رضي الله عنه في كتابه الماتع هذه الخصال، فيذكر منها: سقيا الماء، وإطعام الطعام، والتساهل في النقد، وإيناس الوحشان، وغير ذلك.

وكل هذه الخصال تتلخص في مساعدة الناس وتقديم العون لهم وتطييب خواطرهم، وقضاء حوائجهم والنظر في مشكلاتهم، وهو ما أشرنا إليه بـ«الخدمة» سابقًا، فإنك إذا جعلت هذه الخصال أمام عينيك تطبقها في حياتك على بساطتها

عِشتَ بأخلاق أهل الجنَّة. فرضي الله عن سيدي ومولاي الإمام علي جمعة الذي أوصلنا بالسيد عبد الله بن الصديق الغماري، ورضي الله عن شيخه السيد عبد الله بن الصديق الغماري ونفعنا بهما وبعلومهما وببركاتهما في الدارين آمين.





١١

السيد عبد الله بن الصديق الغماري

رضي الله عنه ووقفات مع حياته العلمية

عبد العزيز معروف

باحث في التراث الصوفي

رأى رجلٌ مع الإمام أحمدَ محبرة، فقال له: يا أبا عبد الله، أنتَ قد بلغتَ هذا المبلغ، وأنتَ إمامُ المسلمينَ، ومعك المِحبَرَةُ تحملهَا، فقال: مع المِحبَرَة إلى المقبرة.[١]

هكذا كان حال مَنْ طَلب العلم على وجهه مِن سلفنا الصالح رضي الله عنهم لا ينقطع العلم عنهم، ولا ينقطعون عنه، فكان الجد والاجتهاد هو شعارهم، ولذا خلدت ذكراهم، فهم يعلمُونَ أنَّ « من كانت بدايته محرقة، كانت نهايته مشرقة، وأنَّ مَن جوَّد وأحكمَ ما يُزاوله في أمر الدين أو أمر الدنيا، نجح وأفلحَ، فكيف بطالب العلم الذي تضع له الملائكة أجنحتها رضاءً بما يصنع، فإن عون الله لا يتخلّف عنه، بل ما أسرعه منه».[٢]

مع تيقنهم أن الحياة الحقيقية هي حياة العلم، «وأنَّ العلمَ يُذكِّرُ أهلُه على وجه الدهر... وأنهم سيعيشون بعد موتهم أغنياء بالذكر الحسن، والسيرة العطرة.

جمالُ ذي الأرضِ كانوا في الحياةِ وهُم ...
بعدَ المماتِ جَمالُ الكُتبِ والسيرِ»[٣]

واعلم أنك إذا فتشت ونقبت عن سيرهم ستجد أن هناك صفات مُشتركة بين جميع سادتنا العلماء، ألا وهي حُسن التوكل على الله، والصبر على الشدائد، والهمة العالية، مع صحبة المشايخ والملازمة لهم.

وإذا اجتمع مع شرف العلم شرف النسب

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي: ص ٣٧.

(٢) صفحات من صبر العلماء على الشدائد، لشيخ شيوخنا العلامة الدكتور عبد الفتاح أبو غدة: ص ٣٧٢.

(٣) صفحات من صبر العلماء على الشدائد، لشيخ شيوخنا العلامة الدكتور عبد الفتاح أبو غدة: ص ٣٧٢.

ازداد العالم بهاء ورونقا، فما بالك إذا كان النسب من الدوحة النبوية التي هي منبع العلوم والأسرار.

أضف إلى هذا بيئة تدعو إلى معالي الأمور، تمثلت في والد كريم، يحض أولاده على الإتقان والدقة، ثم ابن له نفس عالية، وعقل راجح لا يرضى بالتقليد أو تكرار الكلام، كل هذا سيؤدي إلى ميلاد عالمٍ مِن طِرازٍ خاصٍّ، وكان هذا بالفعل، أن ولد سيدي عبد الله بن الصديق الغماري في بيئة تدعو إلى معالي الأمور ونسب هو أشرف نسب، وأب فاضل بلغ في العلم والعمل غايته.[٤]

ففي آخر يوم من جمادى الآخرة، وقيل: في غرة شهر رجب الفرد، بأقصى شمال المغرب، بثغر طنجة، سنة ١٣٢٨هـ، ١٩١٠م، في بيت ضم بين جنباته المكارم والشرف الأثِيل، والعلم والولاية، وُلِدَ السيد عبد الله بن سيدي محمد[٥] بن الصديق[٦] بن أحمد[٧] بن عبد المؤمن الغماري الحسني، وهو الابن الثاني من الذكور لوالده.

ووالدة سيدي عبد الله هي السيدة الشريفة، الوليَّة العابدة الذاكرة، فاطمة الزهراء بنتُ أحمد بنِ أحمد بن عجيبة الحسني (توفيت شهيدة سنة ١٣٤٠هـ).[٨]

(٤) انظر: مقدمة سيدي الشيخ أحمد مرسي النقشبندي لكتاب الكنز الثمين. ضمن موسوعة سيدي عبد الله الغماري: الجزء السادس.

(٥) هو سيدي محمد بن الصديق العالم المدقق الكامل العارف، ولد سنة(١٢٩٥) هـ وتوفي سنة(١٣٥٤) هـ وأفرد له سيدي أحمد بن الصديق ترجمة « التصور والتصديق».

(٦) هو سيدي الصديق بن أحمد بن عبد المؤمن الصوفي الكبير صاحب الكرامات، ولد سنة(١٢٤٦) هـ وتوفي سنة(١٣٣١) هـ

(٧) هو سيدي أحمد بن عبد المؤمن الغماري الحسني، كان من أفراد عصره في العلم والولاية، علامة في القراءات، أفرد له سيدي أحمد ترجمة سماها» المؤذن بأخبار سيدي أحمد بن عبد المؤمن «.

(٨) ترجم لها رضي الله عنها ابنها سيدي عبد العزيز بن الصديق في كتابه تعريف المؤتسي بأحوال نفسي: ص ١٢٦..

النشأة العلمية :[٩]

نشأ سيدي عبد الله محبا للعلم، صاحب همة عالية، تفرس فيه والده سيدي محمد النجابة، فقد شكت له زوجته والدة سيدي عبد الله كثرة مرضه وهو صغير، فقال لها:» لا تخافي سيكون بخير، وسيكون له شأن، وستقع له محنة سينجو منها بفضل الله»، وحدث ما ذكر سيدي محمد بن الصديق رضي الله عنه.

سَلْ عَنهُ وانطِقْ بهِ وانْظُر إليهِ تجِدْ ... مِلءَ المسامِعِ والأفْواهِ والمقَلِ

لما بلغ سيدي عبد الله الخامسة من عمره، أُدخِلَ الكُتاب، فحفظ القرآن الكريم براوية ورش، وأتقن الرسم القرآني جدا، وحفظ منظومة الخرّاز المسماة بـ (مورد الظمآن).

شرع في حفظ المتون على عادة أهل العلم، فكما قيل: «من حفظ المتون نال الفنون»، ومن محفوظاته في هذه المرحلة: « متن الأربعين النووية»، « الآجرومية» في علم النحو، قسطا كبيرا من ألفية ابن مالك، وقطعة من « بلوغ المرام»، وقطعة من « مختصر سيدي خليل» في الفقه المالكي، وذكر سيدي عبد الله أن بلاد المغرب في هذا الوقت لم يكن فيها تعليم علم التجويد، وسيأتي أن السيد والده أمره أن يتعلم التجويد بمصر.

وكان سيدي عبد الله وهو صغير كثير البحث والسؤال لوالده الكريم، يسأله عن كثير من الفنون.

(٩) انظر: سبيل التوفيق، لسيدي عبد الله بن الصديق، وعبد الله بن الصديق الحافظ الناقد، لفاروق حمادة: ص ١١، وسبحة العقيق بمناقب سيدي محمد بن الصديق

وأحب الرياضة، فمارس كرة القدم وأحبها كما ذكر ذلك عن نفسه.[١٠]

بداية الرحلة العلمية:

قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّنْ طَلَبَ الْعِلْمَ تَرَى لَهُ أَنْ يَلْزَمَ رَجُلًا عِنْدَهُ عِلْمٌ، فَيَكْتُبُ عَنْهُ أَوْ تَرَى أَنْ يَرْحَلَ إِلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي فِيهَا الْعِلْمُ فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ؟، قَالَ: يَرْحَلُ يَكْتُبُ عَنِ الْكُوفِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ، وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ يُشَامُّ النَّاسَ يَسْمَعُ مِنْهُمْ»[١١]

ويشام هنا من المشامَّة، يقال: شاممت فلانا إذا قاربته وتعرفت ما عنده بالاختبار والكشف. فكأنك تشم ما عنده ويشم ما عندك؛ لتعملا بمقتضى ذلك. ففيه الاقتراب والمصاحبة للعالم، ويمكن أن نقسم رحلة سيدي عبد الله إلى رحلتين:

- الأولى: السفر إلى القرويين :[١٢]

أمره والده سيدي محمد بالسفر إلى القرويين، (سنة ١٣٤٤هـ)، كما يذكر ذلك سيدي أحمد بن الصديق.

وكان نظام التعليم هناك أن يجلس الشيخ ويجلس الطلاب حوله، ولكن السيد عبد الله لاقى صعوبة في تعلم النحو، فأراد أن يستعين بمن يفتح له مغاليق ألفية ابن مالك، فكتب إلى والده يستشيره في ذلك، فرد الوالد المربي المكاشف:

« لا تستعن بأحدٍ، واحضر الدروس سواء فهمت أم لم تفهم وعن قريب ستفهم، والعلم لنا مضمون، وإنما نسلك سنة الله في الأخذ والتلقي».[١٣]

ونفذ الابن كلام والده، وفتح له في فترة لم تبلغ ستة أشهر، فالالتزام بكلام الشيخ سبب الفتح.

وقرأ سيدي عبد الله في هذه الفترة، بعض الكتب، كشرح المكودي على الألفية، وشرح ابن عقيل عليها، وبعضا من مختصر خليل، وشرح القسطلاني على البخاري، وغيرها من الكتب.

وأوصاه والده سيدي محمد بن الصديق، بأن يحضر الدروس في علوم مختلفة، فمتى حصلت ملكة الفهم في علم سهل بقيته، فالتزم كلام والده.

ثم رجع رضي الله عنه مرة أخرى إلى طنجة، وجلس بها فترة، ثم رجع إلى فاس مرة أخرى، وأكمل فيها مسيرته العلمية الحافلة، ومما يذكر في هذه المرحلة أن سيدي الشيخ كان يقرأ على الشيخ العلامة المحقق العباس بناني، فنهاه بعض إخوانه الصديقيين؛ متهمين الشيخ بناني بشرب الدخان، وترك الصلاة، ففزع سيدي عبد الله إلى والده، فكتب له والده: « احضر دروسه ولا شأن لك بحاله»، فالتزمه، ومما ذكره سيدي الشيخ أنه لما طُلبَ منه بمصر شهادة لتضم إلى سِنيّ الأزهر، كتب إلى القرويين يطلب الشهادة ، فتوقف شيخ الجماعة بالقرويين عن الكتابة فقال له الشيخ العباس بناني:» ليس عندك أعلم منه ولا مثله»، فيا له من أدب رفيع، وتربية

(١٠) سبيل التوفيق في ترجمة عبد الله بن الصديق، ترجمة كتبها الشيخ عن نفسه، موسوعة سيدي عبد الله بن الصديق: ٢٠٠/٦.

(١١) أخرجه الخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث: ص٨٨، رقم ١٢.

(١٢) انظر: ما نقله د محمود سعيد عن سيدي أحمد بن الصديق في كتابه سبحة العقيق بمناقب سيدي محمد بن الصديق، [موسوعة السيد عبد الله الغماري: ١٠١/٦].

(١٣) سبيل التوفيق:٢٠١/٦.

عالية أراد سيدي محمد بن الصديق أن يرسل رسالة لولده، أن هناك من قد يعوقك بسبب الكلام عن الشيوخ، فلا تلتفت لهم، بل الزم شيخك ودعك من قيل وقال، فالحسدة كُثر، وكل هذا يُلفتُك عن الطلب، وملتفت لا يصل.

ثم قابل سيدي الشيخ السيد العلامة الجليل محمد بن جعفر الكتاني رضي الله عنه (ت:١٣٤٥)، وذكر سيدي عبد الله أن من أعظم حسناته تشرفه بعلمين كريمين هما والده سيدي محمد، والسيد العلامة محمد بن جعفر الكتاني رضي الله عنهم جميعا.

ثم رجع سيدي عبد الله إلى طنجة، وشرع في زيارة أضرحة سادتنا الأولياء، كضريح سيدي محمد البوزيدي، وضريح سيدي أحمد الفلالي.

وبدأ يصنف، فكتب شرحا على الآجرومية، وكان يعرض ما يكتبه على والده، وكان سيدي محمد بن الصديق يوجهه، فلما رأى منه شدة في لهجته في رد رأي بعض النحويين، قال له: « لا ترد بهذا الأسلوب، ولكن قل: هذا سهو أو سبق قلم أو اشتباه، أو نحو هذا من العبارات الخفيفة».

ووجهه سيدي محمد بصقل ما تعلم بأن يكتب عن بعض المسائل، ثم يعرضها عليه.

وفي كل هذا عبرة، فعلمه والده الأدب مع العلماء، ثم ملازمة الشيخ، وعرض ما يكتبه عليه، وعلمنا سيدي محمد بن الصديق درسا في غاية الروعة وهو: التفقد، ألا نترك أبنائنا وأنفسهم، بل لا بد من التوجيه والتعهد، مع حسن الثناء وترك التوبيخ، فيذكر سيدي عبد الله عن والده أنه كان يثني عليه مع أصدقائه، فكان هذا محفزا له على إكمال مسيرته.

- الثانية: الرحلة إلى مصر:

« ولكن أحبك أن تذهب إلى مصر وأنت عالم يحتاج إليك علماء الأزهر»

قالها سيدي محمد بن الصديق لسيدي عبد الله عندما طلب منه أن يذهب إلى مصر، فبدأ رحلته إليها في شهر شعبان سنة ١٣٤٩هـ، مصاحبا سيدي أحمد بن الصديق، وسيدي الزمزمي، وقبل الذهاب لقنه والده ورد الشاذلية، وأمره بتعلم التجويد، وعلم التوقيت.

ونزل سيدي عبد الله الإسكندرية، وزار معهد الإسكندرية الديني، واستجاز الشيخ عبد المجيد اللبان (توفي سنة ١٩٤٢م)، فأجازه، ثم زار مقام سيدي المرسي، وذهب إلى القاهرة، وسكن بجوار مقام سيدي أحمد الدردير، وانتظم بالأزهر الشريف، ودرس فيها العلوم المقررة في هذه الوقت وبرز فيها، والذي أحب أن أشير إليه في هذه المرحلة هي تأثره بمشايخ الأزهر، فتتلمذ على الشيخ محمد حسنين مخلوف، والشيخ المنطقي محمود إمام المنصوري، الذي ذكر سيدي عبد الله أنه لم ير مثله في التحقيق، وأن مكتبته قيمة جدا لا توجد عند أزهري.

ثم تقدم الشيخ إلى امتحان العالمية الخاصة بالغرباء، فتقدم بعد مرور عامين فقط، ليمتَحِنَ في اثني عشر علما، فامتَحن ونجح ونال الشهادة، ولم يكتف بهذا، بل أردف هذا بالكتابة في المجلات،

، ثم خصص له في مجلة الإسلام ما يمكن أن نسميه بابا للأسئلة الحديثية، فكانت تأتيه الأسئلة من كافة الأقطار، وكان يجيب بكل قوة وتحقيق، ثم قام بالتدريس للطلبة، وكان يؤهلهم لامتحان العالمية، وقد ذكر هذا في إحدى رسائله، وكان ممن حضر له سيدي صالح الجعفري رضي الله عنه.

وهنا يتعرض العالم للضيق وقلة ذات اليد، فكتب إلى والده رضي الله عنه، فرد عليه السيد الوالد:» كيف تقنط في مصر أم الدنيا، بل اصبر وسوف تكون عالما كبيرا ومحققا شهيرا» وتحقق كلام سيدي محمد رضي الله عنه.

وكانت بينه وبين الوهابية صولات وجولات، وكان يرد عليهم بالحجة والبرهان، مع شغل نفسه بالبيان.[١٤]

وأراد الشيخ أن يدخل امتحان شهادة العالمية، بعد أن رد على الشيخ محمود شلتوت في قضية نزول سيدنا عيسى، في رسالة سماها:» إقامة البرهان على نزول عيسى في آخر الزمان»، فدخل الامتحان، وامتحن هذه المرة في خمسة عشر علما، ونجح بتفوق، ولما تمت تهنئة سيدي عبد الله بالشهادة أمام الشيخ شلتوت، فقال الشيخ شلتوت للمهنئ: علام تهنئه؟ فقال: لأنه نال الشهادة العالمية. فقال الشيخ شلتوت: نحن نهنئ الشهادة الأزهرية بأخذ الشيخ عبد الله لها الذي جاء من بلاده عالما.

وهذا انصاف من الشيخ شلتوت مع رد سيدي عبد الله عليه.

(١٤) سبيل التوفيق:٦/٢٢٩.

أولَئِكَ آبائي فَجِئني بِمِثلِهِم
إِذا جَمَعَتنا يا جَريرُ المَجامِعُ

وفي هذه الفترة، كان يراسل سيدي عبد العزيز، ويكتب له بأسماء الكتب الجديدة، ومؤلفاته، ويذكر أن الكتب كانت مكلفة جدا.[١٥]

وبلغ شيوخ سيدي عبد الله أكثر من ستين شيخا أما تلاميذه فقد بلغوا العشرين، منهم سيدي وسندي فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة حفظه الله وسدد خطاه.

لمحات من الشخصية العلمية لسيدي عبد الله:

الأول: عدم انقطاع الصلة بينه وبين والده، مع دوام الاستشارة فيما يعنُّ له من عقبات الطريق.

الثاني: زيارته لأضرحة أولياء الصالحين، كزيارته لسيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي أبي العباس المرسي، وغيرهم من سادتنا رضي الله عنهم.

الثالث: اختياره للصحبة، كملازمته لسيدي أحمد المرسي النقشبندي.

الرابع: الحرص على اقتناء الكتب ومطالعتها، مع غلاء الأسعار.

الخامس: الحرص على التعليم، وإفادة الطلاب بكل ما يملك.

السادس: التأليف، والتعاون مع غيره من العلماء، فقد ذكر أنه مع مجموعة من العلماء قاموا بتكوين هيئة لطباعة مؤلفاتهم.[١٦]

(١٥) انظر: الرسائل بين سيدي عبد الله والسيد عبد العزيز، موسوعة الغمارية ٦/١٢٠.

(١٦) سبيل التوفيق:٦/٢٨٤.

السابع: علو النفس، فقد عرض عليه عبد الله القصيمي عرضا مغريا، بأن يأخذ راتبا شهريا، وأن يحج على نفقة السعودية وغير ذلك، في مقابل أن ينضم لهم.

الثامن: التقدير لقيمة العلوم، وعدم إهدار الوقت فيما لا فائدة منه، وقد جمعت مؤلفاته رضي الله عنه، فبلغت ثمانية عشر مجلدا.

الرجوع إلى المغرب، والوفاة:

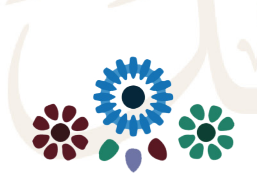
رجع سيدي عبد الله إلى المغرب بعد أن أقام بمصر أربعين سنة، فقد وصل مصر سنة (١٩٢٩م) ورحل عنها سنة (١٩٧٠م)، وتزوج مصرية ولم يعقب، وسكن بالمغرب بالزاوية الصديقية، وعاش زاهدا متفرغا للعلم نفاعا لطلابه.

وفي يوم الخميس الموافق التاسع عشر من شهر شعبان سنة (١٤١٣هـ) الموافق ١١ فبراير سنة ١٩٩٣م، أراد المولى أن يقبض روحا أحبت لقائه، وتشوقت إليه، وعاشت تعرف الناس به، بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان يوما مشهودا، صُلي عليه بالجامع الكبير في طنجة، وامتلأت الشوارع والأزقة وأتى الناس من كل حدب وصوب، يودعون هذا الجبل الشامخ، المحدث الفذ، الذي عز نظيره، صانع العلماء والأولياء، الذي كان» متقلبا في أرجاء المغرب طالبا للعلم، ثم ارتحل إلى مصر فرسخ حتى صار حبرا شامخًا، ومثابة للعلماء وطلاب العلم، ومنارا للحديث والسنة، ثم انقلب إلى المغرب إماما ناصحا، معلما هاديا مرجعا مكينا.. تتسابق إليه العلماء في الأنحاء والأقطار، فكانت حياته معلما من معالم الدين»[١٧]

وأحب أن أختم هذه العجالة بما أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث عن سليمان بن مهران قال بَيْنَمَا ابْنُ مَسْعُودٍ يَوْمًا، مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِذْ مَرَّ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: عَلَى مَا اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ابْنُ مَسْعُود: «عَلَى مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْتَسِمُونَهُ»[١٨]

(١٧) سبيل التوفيق:٦/٢٢٩.

(١٨) شرف أهل الحديث، للخطيب البغدادي: ص ٤٥.



١٢

أثر الشيخ عبد الله الغماري على مولانا الشيخ علي جمعة

كرم بهنسي

الحمدُ لله المتفضل بالنعم أولاً وأخراً، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد:

فقد تأثر وتتلمذ العلامة الجليل، والفقيه الأصولي، الصوفي، المتفنن، مولانا نور الدين والدنيا أبو الحسن على بن جمعة رضي الله عنه على يد زمرة من أهل العلم والفضل والكشف والبيان، وقد أفاد منهم أشد الإفادة وأخذ عنهم الصفات الحميدة، والعلوم الشرعية المفيدة، والتوجيهات السديدة، والأخلاق الرشيدة، فكان لذلك أكبر الأثر في حياته، وكان صاحب الأثر الأكبر في تكوينه العلمي والروحاني هو سراج ونور هذه الأمة في عقودها الأخيرة، الإمام الحجة الفقيه الأصولي المحدث سيدي أبو الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني الإدرسي الطنجي، واللغوية، والمنطق، محيطاً بدقائقها ومستحضراً للنصوص وأقوال العلماء وحججهم في المسائل المختلفة، مع سعة الاطلاع على أدلة المذاهب الفقهية الإسلامية والعقائدية ، وكان سيدنا الشيخ علي جمعه حفظه الله موضع نظر شيخه لما راء فيه من مخايل النجابة والجد والتقى، فكان من أقواله رحمه الله عن تلميذه النجيب الأريب «الشيخ علي جمعة أمة وحده ومات من مات من شيوخ الوقت ممن أدركتهم وهم عنه راضون، وهذا من علامات التوفيق».

وقد ارتبط الشيخ وتأثر بشيخه الغماري في شتى ضروب الحياه حتى صار مثلاً يحتذى به في كل ميادينها، فتأثر رضي الله عنه بشيخه في باب العلم والمعرفة وكثرة الاطلاع، فلقد أوتي سيدنا الشيخ علي جمعة قلماً سيالاً يدل على غزارة علمه، فكتب في علوم شتى، فله من المؤلفات فوق السبعين مؤلفاً، وأبرزها في علوم الشَّريعة والتصوف، فقد عاش الشيخ

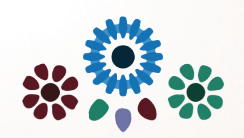
زمنا كبيراً يتلقى العلم على عدد كبير من مشايخ الأزهر في مصر وسائر البلاد الإسلامية، وروى بالسند المتصل العلوم والفنون الشرعية واللغوية المختلفة، فقد ذكر الشيح أسامة الأزهري في كتابه « أسانيد المصريين» أن الشيخ علي جمعة تأثر وتعلم وقرأ على شيخة الغماري: (اللمع) لأبى إسحاق الشيرازى، وصحيح البخاري كاملاً، وشمائل الترمذي، والأربعين النووية، والأوائل السنبلية و(موطأ مالك) وغيرها من المؤلفات والكتب ، فترى من سعة إطلاع الشيخ، وتأثره بشيخه أنه على معرفة بمظان المسائل العجب العجاب، والأعجب من ذلك كله أنه يتغلغل في المبحث العلمي الدقيق، فلا يزال به حتى ينزله على الفكر المعاصر، والنوازل المستجدة، فنتعلم منه كيف يدرس الواقع على ضوء القواعد، وله في ذلك التفرد الذى لا يلاحقه فيه أحد من المعاصرين، وكما سمعناه يقول: (أنا لا أريدكم أن تحفظوا كلام الصحابة فقط، بل أريدكم أن تعيشوا في عصركم كما عاش الصحابة في عصرهم، حتى تقوموا بواجب وقتكم كما قاموا بواجب وقتهم».

والشيخان رضي الله عنهما سيدي عبدالله الغماري، وسيدي علي جمعة أحيا الله تعالى بهما العلم وحلقاته في الأزهر الشريف، فقد عمَّر الله تعالى بالشيخ الغماري الأزهر الشريف، عمَّره بعلومه ودروسه، وجدد الله تعالى به عهد الأكابر من علماء الأزهر وشيوخ الإسلام، فكان رضي الله عنه يجلس في الرواق العباسي، يدرس فيه« جمع الجوامع» فدرسه في أربع سنين ٌقرأه مرتين، وغيره من الكتب والمؤلفات، فتتلمذ له الكثير من علماء الأزهر الشريف، وسار على دربه وتأثر به مولانا الشيخ على جمعة ، فقام ينافح ويدرس بين جنبات وأروقة، وأعمدة الأزهر الشريف العلوم الشرعية فذكر ذلك في كلمات موجزات الشيخ أسامة الأزهري عن شيخه قائلاً: وقد أحيا الله تعالى به العلم وحلقاته في الأزهر الشريف بعد طول موات، وعادت تقرأ فيه عيون الكتب حديثاً، وفقهاً، وأصولاً، وعربية، ومعقولاً على عدد من العلماء على نحو كان قد انقطع منذ زمن، فأقرأ صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وموطأ مالك، وقطعة من سنن النسائي، والشفا للقاضي عياض، وتشنيف المسامع للزركشي على جمع الجوامع للتاج السبكي في أصول الفقه، وابن عقيل على الألفية في النحو، ، ومتن الخريدة في علم الكلام، والإقناع للخطيب الشربيني والباجوري على حاشيته ابن قاسم في فقه السادة الشافعية، والأشباه والنظائر للسيوطي، والتمهيدي للإسناوي وقطعة من الكشاف للزمخشري، كما كان له درس في مسجد السلطان حسن عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع، فأقرأ فيه ابن قاسم على متن أبى شجاع، وغيرها، وكان رضى الله عنه يأتي إلى الأزهر الشريف عقب الشروق بقليل، فيجلس نحواً من ثلاث ساعات أو يزيد، فيتحلق طلاب العلم من الأقطار المختلفة، حتى يمتلئ بهم رواق الأتراك، وتوضع بين يدية في المجلس مبخرة يفوح منها الطيب والبخور، فكان المجلس روضه من رياض الجنة، ثم يشرع القارئ

في قراءة مجلس الحديث، وبعده مجلس الاصول، وبعده حظ من الفقه، وبعدها قراءات أخرى في فنون مختلفة، مختاره من الشفا للقاضي عياض، وتارة من الكشاف للزمخشري، والشيخ في كل ذلك يسمع، فإذا عرضت مسألة أو قضية أو مبحث، أو استشكل أحد شيئا شرع الشيخ في الكلام، فيأتي بالتدقيقات الباهرة، والمفاهيم الدقيقة، مستعملاً الأدوات العلمية من أصول ومنطق ولغة، ثم إنه يأذن لطلبة بالسؤال والمباحثة، فلا تزال تنفتح البحوث والمسائل، ولربما شارك في النقاش غير واحد، الشيخ يرقب نقاشهم، ثم يعقب على الجميع، فيأتي بما لا يخطر لهم على بال، ولربما احتاج الأمر إلى اجتلاب النصوص من الحواشي والمطولات، ومن باب أخر تأثر مولانا الشيخ علي جمعة حفظه الله بأخلاق شيخه الغماري، الذي كان عالماً متواضعاً ليناً سمحاً، فتعددت هذه الفضائل والمكارم وتأثر بها الشيخ علي جمعة فكل من جالس الشيخ علي جمعة أو تعامل معه، يجده سمحاً متواضعاً شفوقاً، فلم يحل الشيخ في مكان إلا وتعلقت به القلوب والتفَّ حوله العام والخاص، وتأثر به في مصر وخارجها، وأصبح اسم الشيخ محل ثقة لدى الجميع بمكانته وعلمه وفضله وجوده وكرمه، فالشيخ يسمع للصغير والكبير والقاصي والداني، وهو لطلابه أب شفوق ومعلم صارم ومربٍ مصلح، أثر في حياتهم العلمية والدعوية، وهو له الأيادي البيضاء في افتتاح كثير من المشروعات الخدمية والدعوية، ومساعدة عدد كبير من طلاب العلم مادياً ومعنوياً في السر والخفاء، وطفي على الشيخ الناحية الروحية الواضحة، فتزكية النفس غايته، وإدراك رضا الله ورسوله هدفه، فهو متواضعٌ، رحيمٌ، نقي الصدر نقاء الثلج، خاشعٌ، رقيق القلب، سليم الصدر، فإن من التزم الشيخ وتعلم وجالسه في مجلسه يجزم أن الشيخ يحيا في عالم من أحبهم قلبه وتعلق بهم من السيد الأكرم - صلى الله عليه وسلم، وقد تأثر مولانا نور الدين والدنيا بشيخه الغماري رضي الله عنه في علم التزكية والأخلاق، فقد أنشأ الشيخ علي جمعة الطريقة الصديقية الشاذلية، امتداد لشيخة سيدي عبد الله بن الصديق الغماري، التي يتصل سند هذه الطريقة العلمي والروحاني إلى سيدي أبو الحسن الشاذلي، فهي طريقة صوفية سنية، تهدف إلى التربية الدينية والروحية بما يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، وقد تأثر الشيخ علي جمعة بشيخه في باب السلوك مبيناً أن التصوف عندنا مقيد بالكتاب والسنة، وما عدا ذلك فليس من التصوف في شيء، والتصوف الإسلامي جزء أساسي في التراث الإسلامي فوجب العناية به، والذبّ عنه ورد الشبهات التي يثيرها المبطلون بالحجة والبرهان، خاصة شبهات المعاصرين التي سلوا فيها أقلامهم بالعدوان والتشكيك والتلبيس.

وقد تعرض التصوف لحملة واسعة منظمة تهدف إلى إثارة الغبار حوله بإثارة دعاوى بعض المتشددين بأنه لا أصْل له من القرآن والسنة، مع أنَّ هذا المنهج يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النَّبَويَّة واجتهاد العلماء فجعلوه

عِلماً سموه بعلم التصوف، أو علم التزكية، أو علم الأخلاق، فألفوا فيه الكتب الكثيرة بيّنّوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن هؤلاء العلماء، الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله وغيره ممن صار علي هذا الطريق القويم وتصدى للمعارضين المنكرين للتصوف والمتشددين في الدين، فتأثر مولانا الشيخ علي جمعة حفظه الله بشيخه رحمه الله، حيث أحيا الله به وعلي يديه التصوف الحق المقيد بالقرآن والسُّنَّة، فبين المنهج الحق وانتصر على المخالفين والمنكرين للتصوف بآرائه، وحججه القويمة مستنداً في انتصاراته إلى القرآن الكريم، والسنة النَّبَوِيّة المطهرة، وسار علي نهج السلف والخلف فقعد وأسَّس لهذا العلم حتى لا يدخله مَن ليس أهلًا له، فيفسد أكثر مما يصلح، ورأى أن أعداء التصوف يهاجمونه بمنهجية منسقة واضحة المعالم، فقام بالرد على شبهاتهم وإنكارهم للتصوف بما فيه من آداب وقواعد، ومسائل، وفروع فرضي الله عنهم وأرضاهم ونفعنا بعلومهم في الدارين آمين آمين.





اللَّهُمَّ صَلِّ صَلَاةً كَامِلَةً

وَسَلِّمْ سَلَامًا تَامًّا عَلَى نَبِيٍّ

تَنْحَلُّ بِهِ العُقَدُ

وَتَنْفَرِجُ بِهِ الكُرَبُ

وَتُقْضَى بِهِ الحَوَائِجُ

وَتُنَالُ بِهِ الرَّغَائِبُ وَحُسْنُ الخَوَاتِيمُ

وَيُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ الكَرِيْمُ

وَعَلَى آلِهْ

وتُسَمَّى بالتفريجيَّة والتازيَّة والناريَّة

من ذكر بها عدد ٤٤٤٤ مرَّة فى حاجة

قضاها الله تعالى له كائنة ما كانت

عن مولاى أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التازى الوهرانى قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ



١٣ رسالة حُسنُ التَلطُّفِ للسيّدِ عبد الله بن الصديق

أسامة محسن

الحمد لله الّذي شرَّفنا بالانتسابِ إلى سيدِّنا مُحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وجعلنا من أمَّته التي هي خير الأمم، ثم شرَّفنا بالانتساب للعلماء الوارثين للنبي الأمين صلى الله عليه وآله وسلم الذين هم مشاعل النُّور في كل زمان ومكان، وأخصُّ مِنهم شيخ الشيوخ وأستاذ الأساتذة: «سيدي نور الدين علي جمعة شيخ الطريقة الصديقية الشاذلية»، فهو رضي الله عنه فرع زكي من أصلٍ طاهر نقي، وهذا الأصل الطاهر النقي هو شيخ الطَّريقة الصدِّيقيَّة والمجدد لمعالمها بالمعارف النورانية صاحب الفضل والفضيلة حجة المحدثين وإمام المحققين السيِّد الشريف أبي الفضل عبد الله ابن السيِّد الشريف مُحمَّد بن الصديق الغُماري الحسني رضي الله عنه وأرضاه والذي تتجدد علينا ذكرى مولده المبارك؛ والشيخ رضي الله عنه كان طويل النفس في الكتابة والتحقيق، فكتب في فنون مختلفة، ولم يؤلف في أي فن إلا وصار هذا التأليف مرجعا مهما في هذا الفن، ومن مؤلفاته كتاب لطيف صغير الحجم عظيم القدر، وهو كتاب «حُسنُ التَلطُّفِ في بيان وجوب سلوك التصوف»، وهو ما سأعرض له في هذا المقال.

اعتنى فيه السيد عبدالله ابن الصديق الغماري بقضية السلوك إلى الله، و في مقدمة الكتاب أوضح ببيان فصيحٍ أهميةَ التصوف، وأنَّه ركنٌ مِن أركان الدين الحنيف، وأنه الباب لتزكية النفس مِن كل وصف قبيح و تحليتها بكل وصف مليح، وبه ترتقي الأرواح في مراقي الفلاح، وأنَّ خُلاصة التصوف هي: أنْ تسلمَ أمورك كلها لله، مع الرضى بالمقدور من غير إهمال لواجبٍ ولا وقوعٍ في محظور.

ثمَّ انتقل رضي الله عنه للتعريف بالتصوف، ومن هو الصوفي؟ ثمَّ بعد عرض مجموعة من التعريفات للتصوف ذكر تعريف الإمام الجنيد فقال: «لعلَّ أبلغ ما قيل في التصوف هو تعريف سيد الطائفة الجامع بين الشريعة والحقيقة الإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه وأرضاه، فقد سُئل فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الشريعة.

وبيَّن رضي الله عنه ما يلي:

١- أن مبنى التصوف الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة وأنَّه خالٍ من البدع، وأنَّ الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما نصَّ على ذلك الإمام الجنيد، وأنَّ الطريق ليس بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنَّما هو بالصبر على الأوامر كما نقل ذلك عن القطب الشاذلي قُدِّس سره العليِّ.

٢- ما الذي ينبغي أن يتصفَ به المتصدر في طريق القوم من التبحر في علوم الشريعة؟ والحكمة من ذلك؛ أن الشخص إذا تصدر للمشيخة والإرشاد اتخذه المريدون قدوة لهم ومرجعًا يرجعون إليه في مسائل دينهم ، فإذا لم يكن متقنًا لعلم الشرع متبحرًا فيه أضل المريدين بفتواه فيحل لهم الحرام ويحرم عليهم الحلال وهو لا يشعر ، وقد تعرض لأحد المريدين مسألة عويصة في الطلاق أو البيوع أو الميراث، ويرجع فيها إلى شيخه الذي لا يتقن الشرع فيفتيه بما يتراءى له، فيقع الشيخ والمريد في الخطأ والضلال وهما لا يشعران ، وأيضًا فأغلب البدع والخرافات إنَّما دخلت في الطريق بسبب المشايخ الذين تصدروا بغير علم ونصبوا أنفسهم للإرشاد من غير أن يكونوا مستحقيين لهذا المنصب الجليل ولولا ذلك لبقي الطريق نقيًا سليمًا كحاله على عهد الجنيد.

فانتقل السيد عبدالله ابن الصديق في الفصل الذي يليه إلى ذكر أكابر العلماء الذين انتسبوا إلى التصوف، وكأنَّه هنا يَذكر ذلك كنتيجة متوقعة من كون الطريق إلى الله مبني على الكتاب والسنة؛ فهو الركن الثالث من حديث جبريل عليه السلام؛ ألا وهو الإحسان، فدفع ذلك العلماء إلى سلوك طريق التصوف، وذكر منهم الحافظ أبو نعيم، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام، والحافظ ابن الصلاح، والإمام النووي، وتقي الدين السبكي، وابنه تاج الدين السبكي، والحافظ السيوطي، وغيرهم، وهكذا لا تجد عالما كبيرًا ولا محققًا شهيرًا إلا دخل في طريق القوم والتمس البركة من أهله، وفتح له وبه بسبب الانتساب إليه، وهذا أمرٌ معلومٌ يدركه من قرأ تراجم العلماء وتتبع سيرتهم واستقصى أخبارهم ، ومن لم يعرف ذلك أو لم يعتد به فهو جاهلٌ متعنتٌ لا اعتداد به ولا عبرة بما يقول.

٤- في الفصل الأخير نصَّ رضي الله عنه على أنَّ سلوك طريق التصوف واجب مُحتَّم لا يكمل دين المرء إلا به، وبين علة هذا الحكم من عدة أوجه نذكرها على سبيل الإجمال:

الوجه الأول: أنَّ التصوف هو مقام الإحسان، الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة المبينة في حديث جبريل عليه السلام.

الوجه الثاني: أنَّ التصوف هو العلم الذي تكفَّل بالبحث عن علل النفس وأدوائها وبيان علاجها ودوائها؛ لتصل إلى مَرتبة الفلاح، وتدخل ضمن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[الشمس:٩].

الوجه الثالث: أنَّ التصوف اعتنى بتهذيب الأخلاق، ومخالفة هوى النفس، وأنَّ التصوف هو خلق الصحابة والتابعين والسلف الصالح الذين أُمرنا بالاقتداء بهم.

الوجه الرابع: أنَّ في سلوك طريق التصوف صحبة المشايخ الكُمَّل والاقتداء بهم، وقد أمر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[لقمان:١٥].

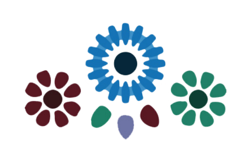
الوجه الخامس: أنَّ سلوك الطريقِ يُنور بصيرةَ الشَّخص ويَسمُو بهمتِه؛ حتى لا يبقى له تعلق إلا بالله، ولا يكون له اعتماد إلا على الله، فيصير مصون السر عن الالتفات إلى الخلق.

الوجه السادس: أنَّ في سلوك الطريق بصحبة شيخٍ مرشدٍ عارفٍ الخروج مِن رُعونات النفس والحماية للمريد من كل ما يمنعه من الوصول إلى الله تعالى.

الوجه السابع: أنَّ في سلوك طريق التصوف الإكثار من ذكر الله، والاستعانة بصحبة الشيخ على ذلك، ولا شك أنَّ الذكرَ يُصفي القلوب، ويؤدي إلى اطمئنانها، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨].

فير ما أختم به المقال هو ماختم به سيدي عبدالله ابن الصديق كتابه، فذكر رضي الله عنه خطرًا جسيمًا يحيطُ بالسالكين في الطريق، وحجابًا عظيمًا لعوام المؤمنين عن طريق رب العالمين، وهو: أنَّه قد دخل في طريق القوم دخلاء أدعياء وأغبياء جهلاء، اتخذوا الطريق سُلمًا لتحقيق شهواتهم، وتحصيل أغراضهم وابتدعوا فيه بدعًا ما أنزل الله به من سلطان، وزعموا أنَّهم أهل الحقيقة، وأنَّه جائز لهم ما هو محرم في الشريعة، والحقيقة أنهم كاذبون؛ فإن الشريعة والحقيقة صنوان، وما خالفت الشريعة الحقيقة قط إلا في نظر جاهلٍ، فمثل هؤلاء ليسوا من الصوفية في شيء، وأول من يتبرأ منهم الصوفية.

ومن الظلم البين أن يعترض بعض الناس بفعل هؤلاء الجهلة ويجعله حجةً على التصوف والصوفية، وما التصوف إلا اتباع الكتاب والسنة، وما الصوفية إلا قوم جاهدوا أنفسهم في الله، فهداهم الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. [العنكبوت: ٦٩].



١٤

التصوف في أفريقيا



عمر فخري أبو العلا

facebook.com/FakhryOmar



صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد بلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، وما ترك بيتَ وبرٍ ولا مَدرٍ إلَّا ودخلَه هذا الدين. وكتبَ الله لبلادٍ أنْ يدخُلَها الإسلامُ بالفتوحات، ولبلادٍ أُخرى بِطُرقِ التجارة، ثُمَّ سطعَ نُوره في أفريقيا، وذلك بعدَ فتحِ مصرَ في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن طريق مصر، دخلَ الإسلامُ إلى أفريقيا، وانتشر في الشمال الأفريقي بين البربر وغيرهم.

وفي القرن الأول الهجري، انتشر الإسلام في داخل القارة الأفريقية، وبعدها بدأ التصوف ينتشرُ في غرب أفريقيا على يد دُعاةٍ كانوا على قلب رجل واحد في أصول الاعتقاد على المذهب الأشعري ، وفي الفقه على المذهب المالكي ، أما الركن الثالث، وهو الإحسان، سلكوا طريقه الصحيح، وهو التصوف، فالتصوف في غرب أفريقيا يمد أتباعه بالرابطة الروحية القوية والطاقة النفسية البناءة، وَيُنظمهم في مشرب واحد رغمَ اختلاف الجغرافيا والعرق، وتحت قيادة مسموعة ومتبوعة، يتلون القرآن معا، ويتشاركون الاحتفال بأيام مباركة معا، ويذهبون للحج في رحلات خاصة بهم.

وكانت الطريقة تقُم مقامَ الجمعيات الخيرية التي نعرفها الآن، وكانت زوايا الصوفية ملجأ للفقراء ومعاهد ومدارس لطلبة العلم، بجانب كونها مساجد للجميع، مما أثمر عن مجتمع كالبنيان يشد بعضع بعضا، فأنتج الثقافات والحضارات والدول والحكومات التي عرفها التاريخ، ويفتخر بها المسلمون اليوم في أفريقيا، وفي العالم، وكل ما يذكر من آثار محمودة في تلك البلاد، إنما هو ثمرة من ثمار الصوفية.

فقد كان أغلب مسلمي غرب أفريقيا يلتزمون طريقة من الطرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسنوسية، ورجال هذه الطرق هم من أسسوا الدول والحكومات الإسلامية بغرب أفريقيا على أنقاض الدول الأولى، وكان من أسباب تمسك الأفارقة بأوراد هذه الطرق وأذكارها؛ فطرة التدين في نفوس الكثيرين منهم، فلم يقتصروا على الفرائض دون النوافل، طلبا للزيادة، ولتكميل الفرائض إذا نقصت.



ظلت الطريقة القادرية هي الأوسع انتشارا في غرب أفريقيا حتى منتصف القرن التاسع عشر، وبفضل الطريقة القادرية، استطاع الشيخ «عثمان بن فوديو» أن يُكونَ الجيش الإسلامي ويؤسس أكبر دولة إسلامية في ما يعرف بشمال نيجيريا اليوم، ويبلغ عدد سكانها نحو ستين مليونا الآن، وبفضل الطريقة التجانية، استطاع الحاج «عمر الفوتي» أنْ يؤسس في السنغال ومالي، الدولة التي قاومت الاستعمار الفرنسي عند احتلالهم للبلاد طوال ربع قرن من الزمن(٢)، ومع ترحيل الأفارقة عبر الأطلسي رسخت في العالم الجديد قدم التصوف – المهيمن على غرب أفريقيا آنذاك – رسوخا ما يزال بالإمكان الكشف عن آثاره اليوم (٣)

التصوف عاطفة ووجدان كما هو معرفة وسلوك. وهذه العاطفة تَظهرُ واضحةً جليَّةً في احتفالهم بالمولد النبوي الشريف، ففي أوغندا، تبدأ مراسم الاحتفال من الصباح، وقد لبس الجميع أفضل ما لديهم من الثياب، وخرجوا إلى الشوارع في مسيرة إنشاد ومديح تعبيرا عن حبهم وشدة شوقهم لهذه الذكرى المميزة. وما إن تنتهي المسيرة الصباحية حتى يعقبها حلقات الذكر في المساجد بأعداد ضخمة وبتنظيم مُلفت للنظر، كلٌّ جاء من قريته لشهود تجلي الحب، فما إن يفرغ المنشد من قصيدة «يا سيدي يا رسول الله – يا من له الجاه عند الله» حتى يبدأ الصغار بقصيدة «صلاة منك ياهو – على النبي تغشاهُ» في تناسق بديع وروح عامرة آسرة.



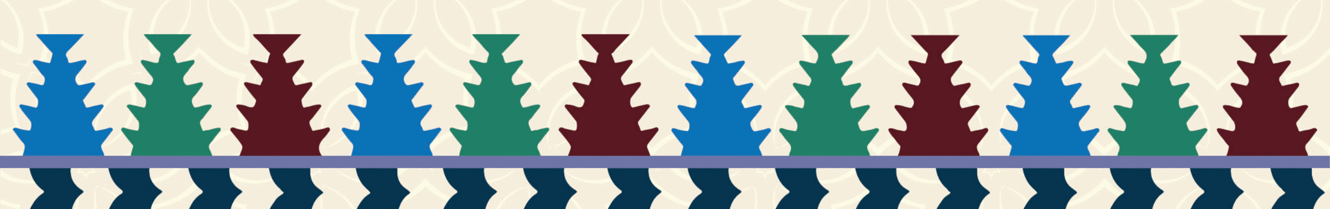


هذه الوجوه السمر سوف تأسرك لا محالة، فخلفها قلوب ناصعة البياض دخلها الإسلام من باب الحب، تلتقي عينيك بعيني واحد منهم، فيبتسم لك ابتسامة صادقة خرجت من القلب إلى القلب. كتب الله لها أن يدخلها الإسلام عن طريق التصوف والمحبة والذكر، فهنيئا لهم، فمجالس الذكر هي رياض الجنة.

(١) آدم عبد الله الإلوري: آثار العلم والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية

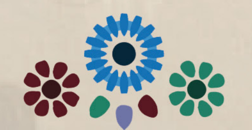
(٢) التصوف الإسلامي في غرب أفريقيا – د. موسى عبد السلام أبيكن

(٣) عباد الله: المسلمون الأفارقة مستعبدون في الأمريكتين – سيلفيان آي ضيوف ترجمة: محمد أسامة رخا



يـا مـن تعـاظـم حتى رقّ مـعنــاه
ولا تــردّى رداء الكِبْــرِ إلا هُــو
تــاهـو بحبـك أقـوام وأنـت لهــم
نعم الحبيـب وإن هـامـوا وإن تاهوا
ولي حبيــب عــزيــز لا أبــوح بـه
أخشى فضيحة وجهي يـوم ألـقاه
قالوا أتنسى الذي تهـوى فقلت لهم
يا قوم من هو روحي كيف أنساه
ما غاب عنّي ولكن لست أبصـره
إلا وقلت جهــارًا قـل هــو اللّه

الإمام الرفاعي



صور الكود للدخول
لموقع الصديقيّة





https://siddiqiya.com/info

